التطور المنهجي في تدوين المقتل الحسيني

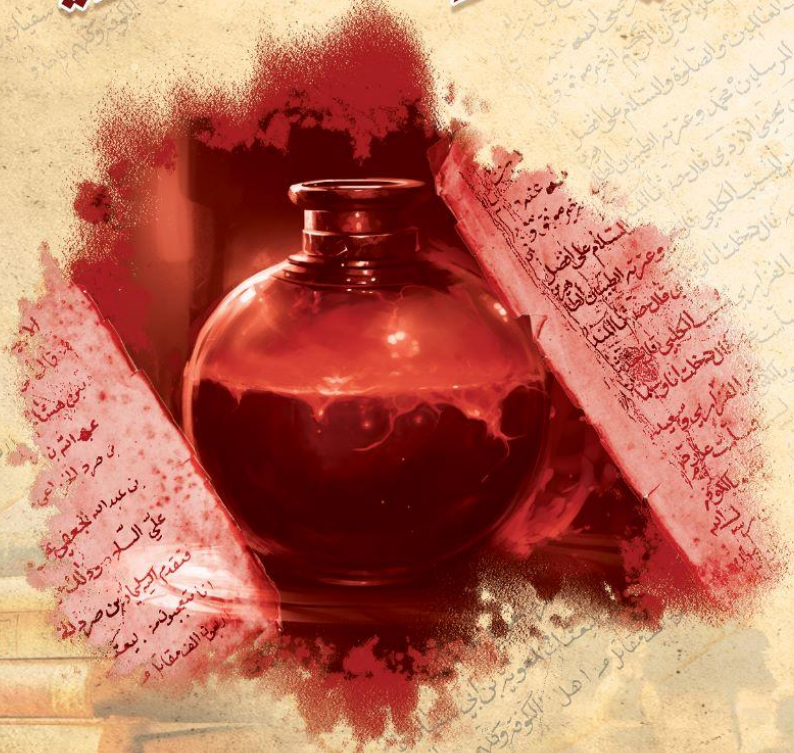

السيد محمود الموسوي

التَطوّرُ المَنْهَجِي
في تَدْوينِ المَقْتَلِ الحُسَيْني

السّيّد مَحْمُود المُوسَوي

الطبعة الأولى

1445هـ/2023م

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلّ على أشرف الخلق وسيّد المرسلين حبيبك المصطفى الأمين، وصلّ على عترته الطاهرة المهدية، الهادية إلى صراطك المستقيم، وسلّم عليهم أتمّ التسليم، وألحقنا بهم في أعلى عليّين عندك يا ربّ العالمين.

السلام على الحسين وعلى علي ابن الحسين وعلى أولاد الحسين وعلى أصحاب الحسين (عليه اسلام)، ورحمة الله وبركاته

مقدّمة

لقد عزمتُ في بداية شهر محرّم الحرام من عام 1445 للهجرة على كتابة مقالة مختصرة في ملامح تاريخ المقتل الحسيني، اعتماداً على رؤية عامة لمطالعاتي السابقة في هذا المجال، ولمّا شرعتُ في كتابة النّقاط، رأيت نفسي بحاجة إلى العودة لمراجعة بعض المصادر، وعندها أحجمتُ عن الكتابة وطويت العزم عن تدوينها إلى حين فراغ مستصعب حصوله فيما يأتي من الأيام، فاندمجتُ في مطالعة بعض الكتب وأنستُ بمادّتها، ومنها موسوعة المقتل الحسيني التي أصدرتها مؤسّسة وارث الأنبياء التابعة للعتبة الحسينية المقدّسة، وكتاب رشيق جديد للباحث رسول جعفريان وَسَمَه بـ(الآقا الدربندي وتدوين المقتل)[1] حيث سجّل فيه عرضاً لحياة المؤلف وتاريخه، وملاحظاته

[1] – طُبع في نفس السنة الميلادية لكتابة هذه الدراسة. 2023م.

النقدية على منهجه في التدوين، وكانت بين يدي كتب أخرى في الشأن الحسيني، باعتبارنا دخلنا عشرة محرم الحرام لسنة 1445 للهجرة.

إلّا أنّ كتاب رسول جعفريان ومطالعة بعض ما كُتب عن المقاتل الحُسينية حفّزني مرّة أخرى للرجوع لإجراء القلم على القرطاس، ووضع الأنامل على لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر، لأشرع من جديد في تسجيل الملاحظات والعزم على الكتابة.

موضوع كتب المَقَاتِل أصبح مادّة حيوية عند الباحثين في زمننا المعاصر، والكتابة فيه غالباً تكون للتعريف بتلك الكتب التي تناولت قصّة كربلاء الإمام الحسين عليه السلام منذ بدايات تداعياتها، ومروراً بمقتله المُفجع، وانتهاءً بأحداث السبي الأليم، وأهداف تلك الدراسات في الغالب تمييز الكتب ذات الشهرة والوثوق عن الكتب الشاذّة التي لا يوثق بسردها للأحداث، وغاية الغاية من ذلك هي الوصول إلى الحقائق الناصعة لسيرة كربلاء، وغاية الغايات هي الركوب في سفينة الإمام الحسين عليه السلام والاهتداء بنوره الربّاني في الحياة.

وقد سألني سماحة الصديق الصدوق والفاضل الخلوق، الشيخ محمد حسن آل إبراهيم (أطال الله عمره) وأنا أضع اللمسات الأخيرة على هذه الدراسة، قائلاً: كيف ترى الخط البياني التاريخي لسيرة المقاتل؟ هل هي إلى الصعود أم إلى النزول؟

فقلت له: الإجابة على هذا السؤال هو ما يحدّد سمة هذه الدراسة، فقد رأيت أنّ نتائج الدراسات التي تناولت تاريخ المقاتل قد نحت باتجاه القول بحركةِ نزول، وأنّها سائرة باتجاه الضعف والتلاشي، لذلك يولي الباحثون اهتمامهم بالتعريف بالمقاتل التي صدرت في القرون الأولى إلى القرن الخامس أو السابع، ثمّ يمرّون على المقاتل التي تلتها والتي دُوّنت في القرن الثامن والتاسع والعاشر وما بعدها من قرون، مروراً عابراً يحمل توصيفات عامّة عنوانها عدم الوثوق وعدم الاعتبار، بل وقد وُصمت بتهمة التحريف وجمع الأساطير والخرافات.

لذلك فإنّ هذه الدراسة ستتناول مساراً مبايناً عن مسارات الدراسات النقدية السائدة لكتب المقاتل، ومختلفة في فهم حركة الصعود والنزول، إذ إنّ السؤال الأهم هو: ما هي سمات المدوّنات

للمقتل الحسيني من جهة منهجيتها التدوينية، وظروفها الاجتماعية والسياسية؟ وهذا يستدعي تسليط الضوء على أبعاد التطوّر التاريخي لمنهجية التدوين وهوية مادتها ومضمونها.

فلن تكون الغاية من هذه الدراسة التصنيف بحسب الوثوق وعدم الوثوق، بل الغاية هي التمييز بينها في جهة المنهجية التي صاغتها قناعات مؤلّفيها ومبانيهم في ظروفها الاجتماعية، وإنّ غاية الغاية بعدها هي الوصول إلى حالة من التفهّم لكتب المقاتل في سيرورتها التاريخية، والنظر لأبعادها المتعدّدة، والاستفادة من مميزاتها المقبولة.

ونعتقد أنّ الوصول إلى تفهّم كتب المقاتل بالمعنى المذكور يمكنه أن يساهم في إعادة إنعام البحث، وإعمال التحقيق في التحقيق، وذلك لرسم صور أخرى تثمّن الجهود المبذولة باعتبارها جهوداً لعلماء أعلام وفقهاء كبار، وهذا على أيّ حال هو نفع يعود على حاضرنا.

فليس من الصحيح ما يصدر من بعض الناقدين من توصيف عام وبأقسى العبارات على مجموعة من المقاتل، بأنّها (موضوعة، وتشتمل على الأكاذيب، وتصيغ الأساطير، وتدعو إلى الخرافة)، فهذا أكبر جناية

على جهودٍ شمّر مؤلفوها الفقهاء -في غالبهم- عن سواعد الجدّ والإخلاص لتدوينها، وفي مقابل هذا فإنّنا لا ندعو لتوثيقها بالجملة، كما لا ننظر للمقاتل القديمة بالتوثيق بالمطلق، وإنّما ندعو لأن يكون الاختلاف في سياق التفهّم المنهجي، والاتفاق في سياق التطوير المستقبلي للتدوين الجديد، وبهذا تتقدّم حركة التدوين وتتنوّع في سماتها، وتتعاون في منافعها المعرفية.

وتبقى هذه الدراسة هي محاولة في طريق التفهّم لسيرة المقاتل الحسينية في جهتها المنهجية، وأسأل الله تعالى أن أكون قد وُفّقت ولو لشيء يسير من تقدير لتلك الجهود، وأسأله تعالى أن يسدّدني ويُخلص نيتي ويختم لي بالسعادة مع الإمام الحسين عليه السلام وفي طريق الخدمة الحسينية المقدّسة.

محمود الموسوي

بني جمرة، البحرين

الخميس 22 محرم الحرام 1445هـ

أبعاد القراءة المنهجية لكتب المقاتل

الكتب هي عبارة عن صياغة مضمونٍ ما على ورق، ولبحث تطوّر تاريخ الكتب وبحث سيرورة تكوّنها، ولمعرفة خطها البياني الكيفي، لا بدّ لنا من ملاحظة عدّة عوامل بالغة الأهمية، وهي الأبعاد التي تشكّل شخصية الكتاب في جوانبه المتعدّدة، ذلك لكي نصل إلى صورة واضحة المعالم عن الخط البياني لسيرة الكتاب وتموضعه التاريخي.

ولهذا فإنّ بحثنا في الكتب التي كان مضمونها (المقتل الحسيني)، أي التي تتناول سيرة الإمام الحسين عليه السلام وتسلّط الضوء على سيرته النهائية في رحلته نحو الطف ووقائع الفاجعة العظمى بمقتله وأولاده وأصحابه، سوف نتناولها بخلفية تلك العوامل بشكل ضمني.

أمّا تلك العوامل التي ينبغي ملاحظتها في دراسة كتب المقتل الحسيني فهي كالتالي:

العامل الأول: الظروف السياسية العامّة التي صدر فيها الكتاب، أي ملاحظة مساحة الحرية المتاحة، وتوجّهات السُّلطة، وخطوط الصراع الدائر في ذلك الزمن، الأمر الذي قد يحدّ من مساحة التدوين وتحديد نوعه، وقد يشجّع عليه ويكون من أولوياته، أو يكون محايداً، ففي أحوال كثيرة سيتأثّر مضمون الكتاب بذلك، وخصوصاً الكتب التي تُعبّر عن الأفكار والاعتقادات المُختلَف حولها.

العامل الثاني: إمكانية توافر المادة والمضمون، أي توافر النسخ والكتب، فقد ينشأ كتاب في بلد أو زمن لا تتوافر فيه الكثير من المصادر التي يحتاجها المؤلّف، وقد تكون متوافرة بكثرة وسعة ويُسر، فيتأثّر الكتاب في وفرته ورؤيته ومعلوماته، ولقد مرّت أزمنة على البلاد الإسلامية بعمومها انتشرت فيها الكتب، وأزمنة انحسرت عنها وضّيعت أو أحرقت أو أخفيت، وهكذا قد يكون ظهورٌ بعد اختفاء بحسب العوامل المحيطة والجهود المبذولة والإمكانيات الموجودة.

العامل الثالث: حاجة المجتمع ومتطلبات مرحلته، أي النظر للظروف التي وُلدت فيها فكرة الكتاب، والبيئة التي صدر من أجلها،

والغاية التي يتوخّاها المؤلف من تأليفه، فقد يروم التوسّع والاستقصاء، وقد ينهج مسلك الاختصار، أو يتناول بالتغليب جانباً على جانب، أو يقتصر على موضوع دون غيره، وهكذا فإنّ هدف الكتاب وغايته ينبغي أن تُلاحظ، فلا يُحاكم هذا على ذاك ولا يقارن ذاك بهذا.

العامل الرابع: رؤية المؤلّف ومنهجه، كما أنّ للمؤلّف غاية من كتابه، فإنّ له منهجه في معالجة موضوعه، والقصد باختلاف المنهج لا في منهجية العلم المتداول بعمومه، لأنّ المناهج ينبغي أن تتقارب، ولكن المقصود هو المباني الداخلية في المنهج من جهة، والمنهج المندمج مع الغايات المتعدّدة، كأن يتداخل التاريخي بالفقهي أو التاريخي بالعقدي وما أشبه ذلك.

إنّ السبب في إيراد هذه العوامل هو أنّ الكتاب له سيرة وبيئة قد وُلد فيها وعاش في أكنافها، فعند ملاحظة هذه الأبعاد (العوامل) سوف تتّضح لنا الصّورة البيانية في تاريخ كتب المقاتل بشكل أفضل، بل وبشكل أكثر إنصافاً، لعدم قياس زمن على زمن أو منهج على آخر، وبالتالي فإنّ هدف القراءة التاريخية المنهجية لكتب المقاتل لا تعني

العمل على مبدأ قبولها أو رفضها، وإنّما الهدف هو تفهّمها في ظرفها التاريخي، وبالتالي البحث عن رؤية أكثر إنصافاً لجهود العلماء الذين أجهدوا أنفسهم في تدوينها.

ومن هنا يتضّح أنّ الأصوات النقدية التعميمية التي تُوزّع على كتب المقاتل نائية عن الإنصاف، ومتنافية مع التحقيق، حيث توغّلت في الأحكام التسطيحية، واستعانت بلغة اتهامية إلغائية، وهي توصيفات قد تبدو في لباس علمي تحقيقي، إلّا أنّها في الأغلب أبعد ما تكون عن الجهد العلمي الجاد.

أمّا بعض أصناف المتلقّين فتعجبهم اللغة القاسية في النقد، ويميلون مع الرأي القاطع في الرفض والنفي، فلا يتوانون في وصف تلك الأصوات بالشجاعة التحقيقية والمُكنة المعرفية، مقابل من يصفونهم بالتحريف والتزييف واتباع الخرافة، وهذا لعمري لهو اتهام عظيم ينبغي التحسّس من استعماله في حق الآخرين، لأنّ الشجاعة هي اتباع الحق بآلية الحق نفسه، لا اتباع ما اعتقد أنّه حق بآلية الباطل.

ولا يفوتنا أن نشير إلى أنّ الأطراف التي وُصفت بتلك الأوصاف، وهم القابلون ببعض ما جاء من أحداث في كتب المقاتل، أنّهم كذلك يحتاجون إلى لغة المعرفة والتحقيق، فلا يتوجّس أحد منهم من التحقيقات في السيرة الحسينية إذا انبثق ذلك عن رؤية منهجية، والحال أنّ الرؤية تُواجه بالرؤية، والدليل بالدليل.

بداية التدوين

أمام صدمة الحدث الدموي الكبير وانتشار أصداء الشهادة العظمى واهتزاز العالم الإسلامي بل الكوني في سنة 61 هجرية عند مقتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام على أرض كربلاء في بلد العراق، بدأت الأنباء تتردّد في بيوت بعض الأصحاب وتتناقل في عتمة المجتمع، لم يجرؤ أحد على الإعلان عن الحدث وتدوينه في حينها، لأنّ السلطات الأموية والعباسية كانت تمارس التعتيم وتحاول حجب الناس حتى عن زيارة قبر الإمام الحسين عليه السلام، فوضعت المسالح حوله، وأخذت بمراقبة كلّ الشخصيات التي تحدّث نفسها بزيارته، فما بالك بالحديث عن جريمة مقتله وذكر المتسبّبين فيها؟

ثمّ برزت إلى العلن بعض الحقائق والأخبار بظهور المنتقم لآل البيت عليهم السلام المختار الثقفي (رحمة الله عليه) الذي قام بتعقّب المشاركين في جريمة قتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وهذا العمل بحاجة إلى

جمع المعلومات الدالة على مجريات واقعة الطف الأليمة، لتعقّب المسؤولين عن الجريمة بتفاصيلها.

وبدأت المعلومات حول مقتل الإمام الحسين عليه السلام بعد ذلك بالانتشار شيئاً فشيئاً، ثمّ بدأ التدوين في الكتب في عهد الإمامَين الصادقَين عليهما السلام اللذين شجّعا أصحابهما على التدوين، فممّا روي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: (**اكْتُبْ وَبُثَّ عِلْمَكَ فِي إِخْوَانِكَ، فَإِنْ مِتَّ فَوَرِّثْ كُتُبَكَ بَنِيكَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانُ هَرْجٍ مَا يَأْنَسُونَ فِيهِ إِلَّا بِكُتُبِهِمْ**)[1].

فقام بعض أصحابهم الأجلاء بكتابة كتب تحت مسمّى (مقتل الحسين عليه السلام أو (قتل الحسين عليه السلام)، وقد ذكروا منها (مقتل الحسين) للأصبغ بن نباتة، وابنه القاسم بن الأصبغ، وقد ذكر ابن شهر آشوب "أنّ أوّل من صنّف فيه (في الإسلام) أمير المؤمنين عليه السلام ثمّ سلمان، ثمّ

[1] – بحار الأنوار، ج2، ص151.

أبو ذر، ثمّ الأصبغ بن نباتة.."[1]، ومن الذين ذكروا له كتاباً في المقتل الحسيني في تلك الحقبة هو جابر بن يزيد الجعفي (ت: 128هـ)، إلّا أنّ هذه المقاتل لم تصلنا، ولقد روى بعض المؤرخين نزراً يسيراً منها في بعض المقاتل التي تلتها.

أمّا بعد القرن الثاني الهجري فقد كثرت كتب المقاتل الحسينية وانتشرت في أرجاء الأرض وتنوّعت صيغ التدوين فيها.

فبعض خصّص كتابه لسيرة المقتل والأحداث التي سبقته وهي متصلة به، كمقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف لوط بن يحيى (ت: 157هـ)، وتلميذه هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت: 204هـ).

وبعض ذكر سيرة الإمام الحسين عليه السلام ضمن سائر السير التاريخية بما وصل له من أحداث عبر التسلسل الزمني، ككتاب الفتوح لابن

[1] – معالم العلماء، لابن شهر آشوب، ص38، عن موسوعة المقاتل الحسينية، ج1، ص98، مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية في النهضة الحسينية.

الأعثم الكوفي (ت: 314هـ)، وكتاب تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر بن جرير الطبري (ت: 310هـ).

وبعضهم مزج بين الجغرافيا والتاريخ فذكر سيرة الإمام الحسين عليه السلام ضمن الجغرافيا، أي من خلال ذكر تاريخ المناطق والبلدان، منها كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) للمسعودي (ت:364هـ)، وكتاب الأخبار الطوال للدينوري (ت: 282هـ).

وبعض نحى في كتابته للمقتل الحسيني نحو كتب السِيَر الشخصية وكتب الرجال الموسّعة، ككتاب الطبقات لابن سعد (ت: 230هـ)، وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري (ت:279هـ)، فكان ذكرهم للمقتل من خلال ذكر سيرة الإمام الحسين عليه السلام وذكر سيرته.

وقد عمد بعض إلى ذكر الحوادث الكونية التي حصلت بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام، مثل كتاب المِحَن لأبي العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي (ت:333هـ).

وبعض اقتصر على ذكر الشهداء الذين قتلوا في كربلاء، ككتاب: (تسمية من قتل مع الحسين عليه السلام)، للفضيل ابن الزبير الأسدي الرسّان الكوفي، وبعض دوّن الأحداث التاريخية التي تلت واقعة كربلاء وهي مختصة بها، كسيرة المختار وانتقامه من قتلة الإمام الحسين عليه السلام، كـ(مقاتل الطالبيين) لأبي الفرج الأصفهاني (ت: 356هـ) الذي ذكر مقتل الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه وأهل بيته، وذكر مسيرة سبي الحرم. ومجموعة من الكتب في شأن المختار الثقفي، منها أخبار المختار لأبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي من أبناء عم المختار (ت: 283هـ)، وكتاب لأبي أحمد عبد العزيز بن يحيى الجلودي (ت: 332هـ)، و(ذوب النضار) لابن نما الحلي، وغيرهم.

وقد كان لكتب الحديث مكان باعتبارها مصادرَ للمقتل الحسيني، حيث خصّص فيها ما كان حول عاشوراء مثل كامل الزيارات لابن قولويه القمي (ت: 367هـ)، وهو من أقوى وأوثق الكتب الشيعية، وكتاب الأمالي للشيخ الصدوق (ت: 381هـ) وهو الخبير الثقة في

روايته حتى عدّوا مراسيله معتبرة، وكتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي (ت: 570هـ)، وروضة الواعظين للفتال النيسابوري (ت: 588هـ).

استمر تدون المقاتل الحسينية طيلة القرون التالية إلى القرن الخامس، ولكنها بدأت بالانحسار نتيجة الظروف القاسية التي داهمت الحواضر الشيعية، وأحكمت قبضتها على منابع التعليم ودور العبادة بيد من حديد، ولكن التدوين لم يتوقف تماماً، فقد كتب الخوارزمي أبو المؤيد بن أحمد (568هـ) مقتله في القرن السادس، وكتب نجم الدين أبو البقاء هبة الله ابن نما الحلي (ت: 645هـ) كتابه الشهير (مثير الأحزان) في القرن السابع، وكذلك صدر كتاب الملهوف في قتلى الطفوف للسيد ابن طاووس (ت: 664هـ) وغيرها من كتب المقاتل.

مدى الوثوق بالمقاتل الأولى

أصبحت الكتب التي صدرت منذ القرن الثاني الهجري وحتى القرن السابع الهجري محلّ اهتمام للعلماء والمحققّين وكتّاب المقاتل، وذلك لقربهم من الحدث وقربهم من عصر الرّواية، ولا يخفى أنّ الكتب هذه لم تكن على حال واحد، فمقتل أبي مخنف على سبيل المثال الذي طُبع

بهذا الاسم لم يعتبره البعض الكتاب الأصلي له، حيث لا يُعلم حقيقة نسبته له، لكونه لم يُطبع إلّا متأخراً، ولذلك قام بعض المحقّقين بجمع ما رواه الطبري في كتابه تاريخ الأمم والملوك عن أبي مخنف في كتاب باسم (مقتل الإمام الحسين)، وآخر باسم (واقعة الطف).

ولكن يبقى أنّ الطبري لم يذكر جميع ما رواه أبو مخنف، ويُحتمل احتمالاً كبيراً أنه قد أهمل بعض التفاصيل التي لا تنسجم مع منهجيته في التدوين، وقد يحتمل أنّه أخفى بعضها ممّا قد تشير إلى ما لا ينسجم مع معتقده، فإنّ الوثوق بكلّ ما جاء به الطبري عن أبي مخنف واعتباره حقيقة كاملة ينبغي القياس عليها ليس على إطلاقه، ولهذا فلا بد من التعامل معه وفقاً للقبول العام بالموثوق، وعبر القرائن، وبشرط عدم مخالفته للأصول والثوابت.

كما أنّ إلغاء المقتل المطبوع باسم أبي مخنف ووصفه بالمختلق بالمطلق يُعدّ إجحافاً للتاريخ، فعند الشك في نسبته إلى مؤلّفه أو الشك في تحريفه يمكن التعامل الحذِر فيه، وقد اعتمد النقل منه بعض الفقهاء والعلماء من كتّاب المقتل.

وتجدر الإشارة إلى أنّ مقتل ابن أعثم لم يذكر مصادره غالباً، وقد اختص بروايات لم يذكرها غيره في تلك الحقبة، إلّا أنّ المدوّنين قد عاملوه معاملة الأخبار المعتبرة ونقلوها في كتبهم، "مثل خبر وصية الإمام الحسين عليه السلام لأخية محمد بن الحنفية وكلمته المشهورة حول فلسفة نهضته عليه السلام، حيث يقول: (إنّي لم أخرج اشراً ولا بطراً.. إلخ).

ومن الأخبار المهمّة التي نقلها: الخطبة القاصعة التي ألقتها زينب عليها السلام عند تقريعها لأهل الكوفة، فإنّ ابن الأعثم يُعدّ الناقل الثاني لهذه الخطبة بعد ابن أبي طيفور.

وكان أيضاً له السبّق على جميع المؤرخين وأصحاب المقاتل فيما نقله من الحوار الذي جرى بين الإمام السجّاد عليه السلام والشامي عند دخول الأسرى إلى الشام، واقتناع الشيخ بكلام الإمام عليه السلام وتوبته، ويظهر أنّ الشيخ الصدوق أيضاً الذي نقل هذا الخبر فيما بعد كان قد أخذه من ابن الأعثم.

وكذلك يُعتبر كتاب ابن الأعثم أقدم المصادر التي نقلت خطبة الإمام السجّاد عليه السلام في مجلس يزيد"[1]، وغيرها من الأخبار.

إنّ اختلاف المنهجيات والدواعي في كتب المقاتل في القرون الأولى ينبغي ملاحظته ووضعه في الاعتبار، ولهذا فإنّ وجود خبر فيها لا يؤخذ به لمجرد أنّها ذكرته، ولا بدّ من رفضه إن كان مخالفاً للأصول والاعتقادات، وأن عدم وجود خبر فيها لا يعني عدم وقوعه، لأنّنا نعلم بالقطع واليقين أنّها لم تستوعب كلّ الأحداث في كربلاء، وبعضها كان منهجه الاختصار كتاريخ اليعقوبي (ت: 292هـ) الذي لم يذكر وقائع كربلاء إلّا في أربع صفحات فقط وهو مؤرّخ شيعي، وقد أبدى بعض الباحثين تعجّبه من ذلك، إلّا أنّنا لا نعلم الداعي لاختصاره، وقد يكون هو منهج الكتاب أساساً، أو أنّه لاحظ كثرة ما كُتب عن الواقعة فلم يُرد التكرار، أو غير ذلك من أسباب.

---

[1] – المباحث الحسينية، ج3، ص70، السيد جعفر علم الهدى البروجردي.

فمع أنّ المشهور هو القول بالوثوق العام بما دوّن في القرون الأولى، وهو قول وجيه لقربها من عصر النصّ وعصر التدين الأوّل، إلّا أنّها لا تخلوا من احتمال الوضع أو الوقوع في الاشتباه أو الانتقاء بحسب المنهج أو بحسب المعتقد وما شابه ذلك، ويُعتبر كتاب (الأمالي) للصدوق (ت: 381 هـ) من أهم المصادر المعتمدة والموثوقة، لجلالة قدر الصدوق ومعرفته، ولذلك اعتمد العلماء على أخباره حتى لو لم تكن مسندة.

نظرية الثقة بما دون القرن الثامن

أخذ بعض الباحثين بالتبشير بنظرية تدّعي أنّ المقاتل المُحسينية التي يمكن الوثوق بها والاعتماد عليها هي تلك التي دوّنت في القرن السابع وما قبله من القرون الأولى، وعليه، فلا اعتبار بما تم تدوينه في القرن الثامن وما بعده، وبالرغم من غرابتها، خصوصاً في عصر التحقيقات والتنقيب عن الكتب القديمة، إلا أنها قد لاقت رواجاً عند بعض الباحثين في العقود الأخيرة.

وموطن التعجّب في قبول هذه النظرية أنّها نظرية تعمّم التضعيف بل تعمّم الوسم بالتحريف والتزييف لواقعة كربلاء في الكتب التي جاءت بعد القرن السابع، وما يثير العجب أكثر أنّها حدّدت التّضعيف بحدود زمنية، وهذا لا يمكن قبوله، فإنّ علماء الدراية والتحقيق لم يقبلوا تضعيف كتاب بأكمله فما بالك بتضعيف حقب زمانية.

وأسباب تلك الدعوى تركّزت في نقاط ثلاث:

النقطة الأولى: هي أنّ البُعد الزمني عن المصادر القديمة كفيل بانقطاع العلاقة بينها، وذهاب المصادر الأصلية إلى عالم النسيان[1].

النقطة الثانية: ما وقع من الحذف والإهمال المتعمّد من قبل بعض الفرق المذهبية المتعصّبة في كتب التراث.

النقطة الثالثة: أنّه في الأزمنة التالية للقرن السابع قد تهيأت أرضية اجتماعية ملائمة للاطلاع أكثر على حادثة كربلاء، فكان سبباً في انحسار المقاتل المحقّقة وحلول المقاتل المحرّفة مكانها.

ويمكن إضافة نقطة رابعة نجدها ذريعة إضافية مبثوثة في بعض الكتابات للقول بعدم الوثوق بالمقاتل التي صدرت بعد القرن السابع، وهي واقع الكتب التي صدرت فعلاً ما بعد ذلك الزمن، فالتحقيق

---

[1] – انظر نهضة عاشوراء، ص 82.

النقدي أثبت لديهم أنّها لا تُعد من كتب التاريخ، ولا تتوفّر على شروط أساسية كالتوثيق والإسناد واعتماد المصادر الأساسية المشهورة.

نقد النظرية

نجري في نقد نظرية عدم القبول بكتب المقاتل المدونة في ما بعد القرن السابع على النقاط التي ذكروها، باعتبارها مسوغات للقول بها.

النقطة الأولى: المدّة الزمنية البعيدة.

البُعد الزمني لا يمكن عدّه سبباً في عدم الوصول إلى المادة التاريخية الصحيحة، لأنّ فكرة الكتب هي أنّها تحفظ التراث وتنشره في أصقاع الأرض، وممّا لا شكّ فيه أنّ الكثير من كتب التراث الشيعي قد طالتها يد العدوان، فأُحرق بعضها ورُمي بعضها في الأنهار، ولكن ذلك لا يعني ذهاب كلّ التراث، خصوصاً ذلك التراث الخاص الذي كان يجمعه بعض العلماء في بيوتهم.

إنّ الحديث عن فقد الكتب وإتلافها لا يمكن أن يكون ذريعة للقول بعدم قبول ما بعد القرن السابع، لأنّ الإتلاف الأكبر قد تحقّق في

عصر السلاجقة الذين كانوا يحملون حقداً كبيراً على الشيعة الإمامية، فعمدوا إلى حرق الكتب وإبادتها، ولكن ذلك كان في القرن الخامس، لأنّ السلاجقة احتلوا بغداد سنة 447 هجرية، ومع ذلك فقد حافظ العلماء على بعض المصادر القديمة.

إنّ توفّر الكتب لدى العلماء وبقاءها في مكتباتهم الخاصّة، قد تجاوز الظرف السياسي الذي كان سائداً، فظهرت بعض تلك الكتب المخفيّة لعامة الناس أو للعلماء المختصّين، وفي بعض الحالات قد قام العلماء الذين يمتلكون تلك المكتبات بتدون مصنّفات جديدة، معتمدين على التراث الذي يمتلكونه، سواء ذكروا تلك الكتب التي استقوا مادتهم منها أم لم يذكروها، وهذا المنحى تجده في كتب السيد ابن طاووس الذي كان يمتلك أكبر مكتبة في القرن السابع، فإنه يذكر في بعض الأحيان اسم المصدر، ويذكر في أحيان أخرى عبارة: ورد في كتب الأصحاب، أو وجدت في كتب أصحابنا، وما شابه ذلك.

ففي موضوع المقتل الحسيني، وجد الباحثون أن السيد ابن طاووس كان ينقل عن بعض مقاتل القرن الثالث الهجري، (لأبي عبيدة

معمّر بن المثنّى (ت: 209هـ)، كما أنّ سبط الجوزي (ت: 654هـ)، في تذكرة الخواص ينقل عن مقاتل متقدّمة كانت موجودة لديه، وقد نقل وقائع في تاريخ واقعة الطف مختلفة عن السائد، بل قال بعضهم إنّه نقل مصرع الرضيع عليه السلام عن هشام الكلبي تلميذ أبي مخنف، وهي تختلف عما يُروى في مصار أخرى.. "كما نقل في عدّة مواضع عن مقتل الحسين لمحمد بن هشام الكلبي والواقدي والمدائني وابن أبي الدنيا، وهذا ممّا يدلّ على أنّ هذه المقاتل كانت لا تنزال موجودة إلى القرن السابع"[1]. ومقتل الحسين للشيخ الصدوق (ت: 381هـ) بقي متداولاً حتى القرن السادس، ونقل عنه ابن شهر آشوب، وعماد الدين الطبري في (كامل البهائي) الذي كان حياً في سنة 701 هجرية أورد العديد من الوقائع التي لم يجدها البعض في المقاتل التي كانت قبله، وهو قد اعتمد على

[1] - نهضة عاشوراء، ص66.

المصادر القديمة، منها (قطع الرأس الشريف من القفا)[1] ودفن الحر في موقع قتله، وغيرها..

مقتل الحسين لجابر الجعفي (ت: 128 هـ)، وهو أحد أصحاب الإمامين الصادق والباقر، وقد لازم الإمام الباقر ثمانية عشر سنة، وكان يروي عنه بكثرة وكان عالماً من علماء الشيعة، وقد ذكر الشيخ الطوسي في الفهرست[2] أنّ له مصنفات عدّة منها كتاب (مقتل الحسين عليه السلام).

وهذا المقتل مفقود ككتاب، ولكن بعض رواياته انتشرت في مجموعة من الكتب الروائية والتاريخية، مثل الكافي (ت: 329هـ) وكامل الزيارات ومقاتل الطالبيين، وكذلك الخرائج والجرائح لقطب الدين الراوندي الذي توفي سنة 573 للهجرة، أي في القرن السادس الهجري.

[1] انظر نهضة عاشوراء (2)، ص71.

[2] الفهرست، ص44.

وهكذا سلسلة النقل يمكنها أن تتواصل، فلا يمكن اعتبار البُعد عن الكتب القديمة سبباً لرفض المقاتل التي دوّنت بعد القرن السابع الهجري.

النقطة الثانية: النظر إلى دواعي التحريف.

النقطة الأخرى هي النظر إلى الدواعي التي تجعل ممّا وقع من الحذف والإهمال المتعمّد من قبل بعض الفرق المذهبية المتعصّبة في كتب التراث سبباً في رفض ما جاء في الكتب المتأخرة عن القرن السابع الهجري، أو تلك التي لم تكتب بأسناد معروفة.

وهذا السبب هو الآخر لا يعين على الأخذ بنظرية رفض الكتب بعد القرن السابع، لأنّ أسباب الحذف والتحريف هي إمّا أسباب سياسية أو مذهبية، فهي تبرّئ الظالم أو تخفّف من سوء أعماله، أو أنّها تحذف الخصائص المذهبية.

ولكنها لا تقوم باختلاق حادثة عادية؛ كأن تدّعي وجود شخص في كربلاء وهو غير موجود مثلاً، أو تختلق بيت شعر لأحد الأنصار

وهو لم يقله، فهذه الوقائع ممّا تمت مناقشتها لا تتصل بداعي التحريف لأسباب مذهبية أو سياسية، وعليه فلا يمكن التعويل على هذه النقطة.

فإنّ ملاحظة دواعي التحريف أمر مهم، خصوصاً الدواعي السياسية للتحريف أو تلك المنطلقة من أحقاد مذهبية عصبية، ولذلك فإنّ البعض قد تنقلب عنده الموازين عندما يوجّه سهام النقد باسم التحقيق في كتاب الإمام الحسين عليه السلام الذي جاء فيه (لم أخرج أشراً ولا بطراً، إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي...) فيرفضه لاعتبار خفائه عن بعض المقاتل القديمة، ويقوم بقبول خبر أنّ الإمام الحسين عليه السلام طلب المبايعة ليزيد ولم يقبلوا به، بالرغم من روايته في مصادر المخالفين، وما ذلك إلا لأنه كان مُدَوّناَ في الكتب الأقدم، فهذا الخلل يمكنه أن يُظهر الإمام الحسين عليه السلام في مظهر الخائف المتراجع عن مشروعه الربّاني العظيم، ويجرّده عن الرؤية الإصلاحية التي تتوافق مع الرؤية القرآنية ومسيرة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله بالقيام من أجل الإصلاح لا من أجل مطامع الدنيا، وهذا القيام هو قيام الشجعان العارفين بالحق، لا قيام المتردّد المتراجع عن المشروع الربّاني.

ولا نقصد بهذا الكلام ردّ كلّ ما جاء في كتب المخالفين، ولكن وعي دواعي التحريف عند المخالف أمر مهم، إذ إنّه يسعى دائماً لنصرة الظالمين أو التخفيف من مسؤولية مشاركتهم في الظلم، فهذا ابن عساكر (ت: 571هـ) في تاريخ مدينة دمشق -والذي يُعدّ مصدراً موثوقاً- لا يذكر أعداء الإمام الحسين عليه السلام الآمرين والمتسببين في مقتله، لعلّه لانتمائه الشامي ولبني أمية.

ومثال آخر على ذلك، لقد ذكرت المصادر المتعدّدة الموثوقة موقف عبد الله بن عباس من نهضة الإمام الحسين عليه السلام، وخلاصته أنّه مؤيّد لأصل الخروج، لكنّه أشار على الإمام بحسب علمه المحدود بأن يلجأ إلى اليمن لتعزيز قدرته بشيعة أبيه، وبعد تفهيم الإمام له، تساءل عن سبب إخراج النساء والأطفال، وقد توافق أصحاب المَقاتل على عموم هذا الاتجاه في محاورة وموقف ابن عباس، إلّا أنّ الدربندي يروي عن الفوادح للشيخ حسين البحراني أنّ نصيحة ابن عباس تضمّنت اقتراحاً منه للإمام الحسين عليه السلام بأن يلجأ للصلح مع بني أمية، وهو موقف

معارض للموقف المشهور لابن عباس، وهذا النقل لا يمكن قبوله، سواء ورد في الكتب المتقدّمة أو الكتب المتأخرة.

فإنّ المؤرّخين المنتمين إلى بني أمية يناسبهم أن تقترح الشخصيات ذات الجاه الديني على الإمام الحسين عليه السلام خيار المبايعة ودعوته لوضع يده بيد بني أمية، لتظهر الإمام عليه السلام في موقف شاذّ عن آراء الصحابة والقرّاء المسنّين في الإسلام، و معرفة أهداف هؤلاء المؤرّخين أدعى للميل للأخذ بالرّوايات التي رويت في الكتب المشهورة، لأنّ تلك الرّوايات فيها إدانة لبني أمية وسلامة لموقف ابن عباس، الأمر الذي لا يتمنّى إظهاره العدو.

وللسبب ذاته نجد أنّ موقف محمد بن الحنفية (رضوان الله تعالى عليه) في المصادر السنية موقف متخاذل، وقد صرّح للإمام الحسين عليه السلام بأنّه يضن بأولاده عليه ولا يقبل بخروجهم معه معترضاً على أصل الخروج، ممّا يدعو المحقق إلى التشكيك في ذلك النص، والقبول بالنصوص التي أوردها الأصحاب في كتبهم التي تبيّن تأييد محمد للإمام وتعيينه عيناً له في المدينة، وإعطائه رسالة النهضة ومنطلقاتها،

وقيام الإمام الحسين عليه السلام بمراسلته في مراحل خروجه وحتى آخر رسالة قد كتبها له الإمام عليه السلام في يوم العاشر.

النقطة الثالثة: متطلبات الواقع الاجتماعي

إن الدعوى التي ترجئ انتشار الكتب غير المحقّقة إلى الواقع الاجتماعي بدعوى أنّ الأرضية مهيّئة لذلك، وكون ذلك سبباً في انحسار المقاتل المحققة مقابل انتشار المقاتل المحرّفة، هي دعوى لا يمكن عدّها سبباً، إذ إنّ انحسار المقاتل المحقّقة ليس له صلة واقعية ولا يتلازم مع وجود الأرضية إن صحّ ذلك.

ويبدو أنّ الأرضية المقصودة هي انفراج الجو السياسي والاجتماعي لدى الشيعة الإمامية في زمن الدولتين الصفوية والقاجارية، وهذا يعني أنّ الأرضية كانت تحتاج إلى جهود إضافية لتلبّي الحاجة الماسة للمجتمع الشيعي النامي في حينها، وتلك الحاجة أو الحاجات قد اضطلع بها علماء الدين وفقهاء الأمة في وقتها، وقد قاموا بسد بعض الثغرات ولبوا بعض الاحتياجات عبر جهود معرفية متنوعة، كان منها صياغة المقاتل بنمط

يمكن الاستفادة منه في مراسم الإحياء العاشورائي الذي كان يتنامى وينتشر بشكل ملحوظ.

وهو ما سنتناوله فيما بعد، ونحاول تحليل الظروف التطورية لكتب المقاتل في تلك الحقب الزمنية، وهذا الأمر عينه يمكن الإجابة به عن النقطة الرابعة التي تختص بمقاتل تلك الحقبة وتمييزها عن المقاتل المحققة والموثوقة.

كتابة المقتل الحسيني تلفيقاً

لقد تطوّرت صياغة المقتل الحسيني شيئاً فشيئاً عبر الزمن، فنظراً لأهمية واقعة الطف في وجدان الأمة أخذ بعض الأعلام -وهم من الأوائل، أي بين القرن الثالث وما بعده- بالتدوين بأسلوب مختلف عن منهج كتابة الروايات الحديثية أو التاريخية، وهو أسلوب تركيبي بين عدّة روايات من مصادر متعدّدة، لتكوين قصة كاملة يمكن عرضها على القارئ من بداية المسيرة حتى نهايتها، وبالتالي فإنّهم إمّا أن يذكروا مصادرهم العامة في أوّل الكتاب أو يشيرون إلى أنّهم اعتمدوا الكتب المشهورة والموثوقة في صياغة مادة المقتل الحسيني.

والفكرة الريادية في هذا النوع من التدوين هو عرض صورة الحدث بما يوجد من أبعاد لها لتكتمل الوقائع في ذهنية القارئ، باعتبار أنّ المرويات التاريخية تعدّدت وتقطّعت، فهذا قد يذكر جانباً من المبارزة،

وآخر يذكر جانباً من المخيّم الحسيني، فتدمج في سياق واحد بحيث تظهر كأنّها رواية واحدة.

ومن أولئك الذين ابتدأوا بهذا الأسلوب الشيخ المفيد في كتابه (الإرشاد)، وابن نما الحلي في كتابه (مثير الأحزان)، والسيد ابن طاووس في كتابه (اللهوف في قتلى الطفوف)، وهذه الطريقة من العرض لوقائع المقتل ستأثّر في مسار التدوين في المقاتل اللاحقة بشكل ملحوظ.

وقد ذكر ابن نما في مقدّمة كتابه عن دواعي كتابته بهذا الأسلوب: "إنّ الذي بعثني على عمل هذا المقتل أنّي رأيت المقاتل قد احتوى بعضها على الإكثار والتسويل، وبعضها على الاختصار والتقليل، فهي بين طويل مسهب، وقصير قاصر عن الفوائد غير معرب، والنكت فيها قليلة، ومرابعها من الطرف والغرائب محيلة.

فوضعت هذا المقتل متوسّطاً بين المقاتل، قريباً من يد المتناول، لا يفضي لملالة وهذر، ولا يجفي لنزارة وقصر، ترتاح القلوب إلى عذوبة

ألفاظه، ويوقظ الراقد من نومه وإغماضه، وتسرح النواظر في رياضه، وينبّه الغافل عن هذا المصاب والذاهل عن الجزع والاكتئاب"[1].

وكلامه واضح في أنّه قام بصياغة المقتل وترتيبه بحيث يكون متسقاً عذب اللغة ليصل إلى مرامه من وعي الأحداث والتفاعل معها.

ثورة الكتب الشيعية

لقد كان القرن العاشر وما بعده من القرون الهجرية هو مرحلة تأليف المجامع الحديثية والتراثية عند الشيعية الإمامية في مرحلتها الثانية، وهي المرحلة العظيمة التي دوّنت فيها مشاريع ضخمة كبحار الأنوار للعلامة المجلسي (ت: 1110هـ)، وكتاب وسائل الشيعة للحر العاملي (ت:1104هـ)، وكتاب الوافي للكاشاني (ت: 1191هـ)، وغيرها، حيث استثمر علماء الشيعة المساحة السياسية التي أتيحت لهم في عصر الدولة الصفوية والدولة القاجارية فيما بعد، وبعد أن زال كابوس دولة السلاجقة، استثمروها بتأسيس مشاريع تعوّض ما تم

[1] – موسوعة مقتل الإمام الحسين (ع)، ج4، ص60، محمد بن عيسى المكباس.

بعثرته من كتب وما تم إخفاؤه والتكتّم عليه منها، فأظهروه في كتبهم وجمعوا كلّ شاردة وواردة فيها.

فمن المتوقع لتلك الحقبة الذهبية وما توافر فيها من الإمكانات للتواصل مع سائر البلدان، أن تكون المقاتل الحسينية التي تُكتب فيها وفيما بعدها أوسع من المقاتل التي سبقتها، ولذلك قد اشتمل كتاب بحار الأنوار على مقتل واسع، وأوسع منه في كتاب عوالم العلوم للشيخ عبد الله البحراني (ت: 1130هـ).

دخول السمة الأدبية في صياغة المقاتل

لقد ذكرنا فيما سبق اتباع العلماء لمنهج التلفيق بين المرويّات التاريخية في المقتل الحسيني لتكميل الصور والوقائع من جهاتها المتعدّدة، ومع اتساع التشيّع مع نشوء الدولة الصفوية والدولة القاجارية -اللتان شجّعتا على إقامة المآتم الحسينية بإحياء عاشوراء بشكل جماعي ومتعدّد- أصبح المجتمع عندئذ بحاجة ماسّة إلى مادة تاريخية ترسم له صورة الحدث العاشورائي وكأنّه يراه، بحيث يتفاعل معه المستمع ويثير أشجانه ويهرق الدموع في ذكر مصابه، فبرزت كتب بمثابة مقاتل حسينية تقوم بهذا الدور، حيث استخدم مدوّنوها الأساليب الأدبية بمختلف أنواعها للتعبير عن ما تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام وأولاده وحرمه وأنصاره من ابتلاء ومن المصائب والآلام.

لم تكن الفكرة وليدة تلك الحقبة الزمنية، أي القرن العاشر وما بعده، بل كانت قد بدأت تجارب من هذا القبيل من قبل هذا التاريخ، أي القرن السادس الهجري، بل من القرن الرابع الهجري حيث اشتهار النائحين عند مرقد الإمام الحسين عليه السلام[1]، وهو من تأثيرات الدولة البويهية، ولكنها اتسعت في القرن العاشر وما بعده بشكل ملحوظ، وأصبح الكتاب النوعي الجديد متداولاً في المجتمع ومقروءاً على المنابر من قِبل الخطباء، وقد ذكرنا إرشاد المفيد، والملهوف للسيد ابن طاووس، ومثير الأحزان لابن نما الحلي في هذا الاتجاه.

فممّا يُنقل في من ابتدأ فكرة الصياغة الأدبية المؤثّرة للمقتل الحسيني، أنّ الخوارزمي الذي عاش في القرن السادس الهجري كان من الخطباء، فلذك تأثّر نقله للرّوايات بحسب ملاءمتها للمستمع،

---

[1] – انظر واقعة كربلاء في الوجداني الشعبي، ص372.

فاختلفت رواياته من ناحية الكم ومن ناحية الكيف عن ابن الأعثم الكوفي، بحسب ما رآه بعض الباحثين[1].

ولكن تظهر التجربة بشكل ملحوظ في مقتل الحسين عليه السلام لأبي الحسن البكري ضمن كتابه (الذروة في السيرة النبوية) في القرن الخامس والسادس، "إنّ رسالة البكري هذه، وإن كانت مختصرة، إلّا أنّ أسلوب كتابتها كان مميّزاً وعلى طريقة القصّاصين والأدباء، وكانت هذه طريقة جديدة ومبتكرة من أمثال البكري الذي عاش في القرن الخامس والسادس، وقد كان فتحاً جديداً في عرض تاريخ عاشوراء بهذه الطريقة"[2].

ومنها مقتل الشهداء (فارسي) لأبي الفخر الرازي وهو من شعراء القرن السادس، "الظاهر أنّ المؤلّف قد أورد الكثير من أحداث واقعة كربلاء بقالب شعري، وقد كان له سهم كبير في المقاتل الواردة باللغة

---

[1] – انظر نهضة عاشوراء (2)، ص56، محسن زنجبر.

[2] – نهضة عاشوراء (2)، ص57. دراسة حول المقاتل والمصنفات العاشورائية، محسن زنجبر

الفارسية بسبب ترجمته للأرجوزات والأشعار التي أنشهدها أصحاب الإمام الحسين عليه السلام ، هذا المصنّف كان موجوداً لدى الكاشفي مؤلف كتاب روضة الشهداء حيث نقل عنه الكثير من الأشعار وأوردها في مواضع متعدّدة من كتاب الروضة)[1].

ظهرت هذه النوعية من الكتابة لكي يستعملها الخطباء على المنابر وليحملها الزائر في سفر زيارته ليستذكر فاجعة الطف عند زيارته، وهذا ما صرّح به السيد ابن طاووس عن سبب تأليفه لكتاب اللهوف، إذاً الغاية التي من أجلها انبعثت هذه المقاتل، هي تقديم المقتل الحسيني في قالب نصّ أدبي ليكون مستساغاً عند القارئ ومناسباً لإحياء المجالس العاشورائية.

وممّا يشهد للواقع في للقرن السادس والسابع من إحياء للشعائر الحسينية والحاجة لقراءة المقتل ما ذكره ابن الفطوي في كتابه (الحوادث الجامعة)، في قوله: "وفي سنة (641 هجرية) تقدّم المستعصم إلى جمال

---

[1] – نهضة عاشوراء (2)، ص25، دراسة حول المقاتل والمصنفات العاشورائية، محسن زنجبر.

الدين عبد الرحمن بن الجوزي المحتسب بمنع الناس من قراءة المقتل في يوم عاشوراء والإنشاد به في سائر المحال بجانبي بغداد، سوى مشهد موسى بن جعفر..."، وقال: "وفي محرّم سنة (647 هـ) تقدّم المستعصم بمنع أهل الكوفة والمُختارة من النياحة والإنشاد وقراءة مقتل الحسين خوفاً من تجاوز ذلك إلى ما يؤدّي إلى وقوع الفتنة"[1]. فكانت العادة جارية منذ القرن السادس والسابع على قراءة المقتل، بل هي قبل ذلك، ولكنها قد ظهرت في ذلك الزمان.

وبعد تهيؤ الجو السياسي اتسع هذا الدور، فجاء كتاب روضة الشهداء للكاشفي (ت: 910هـ) الذي هو مثار الجدل منذ أن ظهر للتداول في إيران، وكانت فكرة الكتاب هي الصياغة الأدبية المؤثّرة للسيرة النبوية، ثمّ لسيرة الأئمة الطاهرين وصولاً للإمام الحسين عليه السلام صاحب المصيبة العظمى والابتلاء الأكبر، ولم يكن كتاب الروضة

[1] – واقعة كربلاء في الوجداني الشعبي، ص363، محمد مهدي شمس الدين، عن الحوادث الجامعة، لكمال الدين عبد الرزاق بن المروزي الفوطي البغدادي (ت: 723هـ).

كأمثاله من كتب المقاتل لعدم توثيقه عند البعض، واُختلف في تشيّعه، فبعض قال بأنّه سنّي المذهب، وبعض قال إنّه يميل إلى التشيّع، وقطع آخرون بتشيّعه كآغا بزرك الطهراني، ولعلّ تضعيف كتابه لأنّه اتبع طريقة الصياغة الأدبية للمقتل، أو كما افترض بعض الباحثين أنّه "كان يسكن في هرات التي كان سكنتها جميعاً من أهل السنّة؛ لهذا كان الملاّ حسين يتردّد بين هاتين المدينتين، ويرتقي المنبر فيهما، وكان يعمل بالتقية؛ من هنا لم يكتب كتابه روضة الشهداء بالنهج الشيعي بشكل كامل؛ ولذا لم يكن من الكتب المعتبرة في المقاتل"[1].

على أي حال، سنرى هذا النهج وهو صياغة المقتل الحسيني بصياغة أدبية مؤثّرة رائجاً عند العلماء الذين دوّنوا المقتل الحسيني فيما بعد، وما ينبغي الإشارة إليه في هذا النوع من المقاتل أنّها استخدمت أدوات البلاغة في صياغة العبارات، وأكثرت من السجع والمحسّنات اللفظية،

[1] – دراسة نقدية لكتب المقاتل عند الشيعة، الشيخ علي الدوّاني، ترجمة الشيخ محمد الحلفي، موقع مؤسسة وارث الأنبياء التابعة للعتبة الحسينية، على شبكة الانترنت.

فخرجت عن كونها نصوصاً روائية في مستواها التأريخي، فقدّموا المادة التاريخية بصياغة مختلفة تحتوي على أدوات التأثير في الآخر.

وممّا استعمل في هذا النهج هو لسان الحال[1] الذي كان يُستعمل في الشعر والأدب العربي بشكل سائد، ولسان الحال من شأنه أن يخلق حواراً تخيلياً لإبراز المعاني المقصودة والخفية، وهذا ما يدفع نحو التأثّر بالوقائع والاندماج الكلّي معها، إلّا أنّه لا يمكن تسميته نصاً تاريخياً، بل هو عامل مساعد لاستشعار المصيبة الواقعة واستثارة الأحاسيس نحوها.

ومن أدوات النهج الجديد في صياغة المقاتل هي أداة التلفيق التي استعملها علماء القرن الخامس وما بعده كالشيخ المفيدة وأضرابه، وهو التلفيق بين الرّوايات المتعدّدة ودمجها لتكوين الحدث في صورة كاملة، ولكن التلفيق الجديد في القرون الأخيرة أصبح بشكل أكبر، والسبب

[1] – بحثنا مبحث لسان الحال من جهة فقهية واستظهرنا فيه آراء الفقهاء في كتابنا (فقه الشعائر الحسينية).

في ذلك هو توافر المصادر وكثرتها، سواء اتصفت بالقوة أو بالضعف، ولأنّ الخبر الضعيف يصح الاستعانة به فيما دون الحكم الفقهي المحلّل والمحرّم عند العديد من الفقهاء، وهناك سعة في التعامل التأريخي مع النصوص بحيث يكفي فيها النقل التاريخي غير المعارض وغير المخلّ، لهذا المبنى في التعامل مع الأحداث التاريخية أصبحت الصياغة للمقاتل بشكل أوسع وأكمل من ناحية التصوّر ومن ثمّ التأثير في المتلقّي.

تصدّي الفقهاء لكتابة المقتل

الحديث عن القرن العاشر الهجري وما بعده في تدوين المقتل يلجئنا لذكر حقيقة بالغة الأهمية، والتي قد تكون خافية أو يخفيها البعض عند توجيه سهام نقده لكتب المقتل المدوّنة في هذه الحقبة، وهذه الحقيقة هي أنّ أكثر وأظهر من تصدّى لصياغة كتب المقاتل هم رعيل فقهاء الأمة وأعلام الطائفة الإمامية (قدّس الله أسرارهم)، وهي حقيقة ينبغي إبرازها دوماً أمام الناقد الفاحص.

لا يتردّد العديد من الباحثين في الإشارة إلى أنّ هذه الحقبة الزمنية لم تولّد لنا إلّا كتباً عقيمة ساذجة، اتسمت بالضعف وعملت على التحريف، حيث أضاف مؤلّفوها أحداثاً من عندياتهم وبأذواقهم الخاصة وتفنّناتهم، ويمثّلون لذلك بكتاب (روضة الشهداء)، والمنتخب للطريحي، وكتاب تظلّم الزهراء للقزويني، ومحرّق القلوب للنراقي،

وكتاب الدمعة الساكبة للبهبهاني، ومعالي السبطين للمازندراني الحائري، وتذكرة الشهداء للكاشاني، والأهم من كلّ ذلك كتاب (إكسير العبادات وأسرار الشهادات) للدربندي[1].

هنالك ملاحظات نقدية قاسية قد وجّهت لهذه المقاتل، قاسية في ألفاظها وقاطعة في تعميمها، حتى أخرجها البعض من دائرة اهتمامه في مشاريعه البحثية الحسينية، ولا يعير لها أيّ اهتمام، ويمكن أن نشير إلى ملامح نقدهم فيما بعد بشكل مختصر، ولكننا ينبغي أن نقف وقفة تعريفية عابرة لهذه القامات العلمية التي تم توصيفها بأنّها (ساذجة، محرّفة، مكذوبة، مهينة لعاشوراء، لا يُعتنى بها).

والإشارة بالتعريف للمؤلّفين، لكي نضع درجة التقييم التي ينبغي أن تتكوّن عند الباحث في أعلى درجات التحسّس، ووضع الورع والتقوى ضمن أدوات النقد، وكلّ ذلك لا لندعو لقبول جميع ما جاء

[1] – راجع نهضة عاشوراء (2)، ص82. وكتاب الملحمة الحسينية للمطهري.

فيها، بل هي دعوى للتأمّل من جديد، لنصعد مركب الإنصاف عبر التفهّم، ويمكن لقراءة المنهجية أن تفي بذلك وتحقّقه.

ونذكر منها التالي:

1 – كتاب (المنتخب في جمع المراثي والخطب)، المشهور بالفخري، لفخر الدين الطريحي (ولد سنة 979هـ، وتوفي سنة: 1087هـ).

قال عنه الشيخ محمد حرز الدين في كتاب مراقد المعارف: كان من أظهر علماء عصره في العلم والورع والتقى والزهد والعبادة، ومن مشايخ الإجازة ورواة الحديث، وكان شاعراً أديباً مؤلّفاً. وقال عنه الحر العاملي صاحب وسائل الشيعة في أمل الآمل: فاضل، زاهد، ورع، عابد، فقيه، شاعر، جليل القدر.

وله من المؤلّفات القيّمة: كتاب مجمع البحرين، وجامع المقال، وشرح رسالة الشيخ حسن بن الشهيد الثاني، وحاشية على المعتبر للمحقق، وكتاب الاحتجاج في مسائل الاحتياج، وكشف غوامض القرآن، وجواهر المطالب في فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام، وغيرها .

2- كتاب (محرّق القلوب) لمحمد مهدي النراقي (ت: 1209 أو 1211هـ).

وهو الشيخ الجليل المولى محمد مهدي بن أبي ذر النراقي[1] أحد أعلام المجتهدين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الهجرة، ومن أصحاب التأليفات القيّمة. له في الفقه (معتمد الشيعة)، وفي الأخلاق (جامع السعادات)، ومشكلات العلوم، وهو والد المولى أحمد النراقي المتوفى 1244، صاحب موسوعة (مستند الشيعة) المشهورة في الفقه، وصاحب التأليفات الثمينة، أحد أقطاب العلماء في القرن الثالث عشر. وكفاه فخراً أنّه أحد أساتذة الشيخ العظيم المولى مرتضى الأنصاري المتوفى سنة 1281 هجرية.

[1] - جامع السعادات، ج1، بتصرف.

ومن أساتذة النراقي في كربلاء، الوحيد البهبهاني (1206هـ)، والشيخ يوسف البحراني (ت:1186) والشيخ مهدي الفتوني (ت: 1183).

3 – كتاب (مخزن البكاء) لمحمد صالح البرغاني[1] تم تأليفه في سنة 1256 هـ.

قال الشيخ آقا بزرك الطهراني في الطبقات: «من مشاهير العلماء... كان من رجال العلم الأكابر، وحجج الإسلام الأفاضل، وفقهاء الأُمة الأعلام، من أساتذته في كربلاء: الشيخ باقر البهبهاني، والسيّد حسين المعصومي، والسيّد مهدي بحر العلوم، والشيخ جعفر صاحب (كشف الغطاء)، والشيخ عبد الغنيّ القزويني.

له مؤلّفات عديدة، منها: (غنيمة المعاد في شرح الإرشاد) أي: إرشاد الأذهان في الفقه للعلّامة الحلّي، في أربعة عشر مجلّداً، (مسالك

[1] – مخزن البكاء، ج1، بتصرف.

الرشاد في شرح الإرشاد) في ثلاثة مجلّدات، (فنّ الفقاهة)، (بدائع الأُصول)، (بحر العرفان ومعدن الإيمان في تفسير القرآن) في سبعة عشر مجلّداً، (مفتاح الجنان في حلّ رموز القرآن) في ثمانية مجلّدات، (مصباح الجَنان لإيضاح أسرار القرآن) في ثلاثة مجلّدات، (كنز الواعظين في أحوال الأئمّة الطاهرين) في أربعة مجلّدات، (الدرّة الثمينة في المواعظ)، (مفتاح البكاء في مصيبة خامس آل العباء) بالفارسيّة، (مخزن البكاء) مطبوع بالفارسيّة في مقتل سيّد الشهداء الحسين عليه السلام، (كنز المصائب) كتاب مخزن البكاء لمحمد صالح البرغاني تم تأليفه في سنة 1256 هـ.

4- المقتل من كتاب بحار الأنوار، للعلامة المجلسي (ت: 1110هـ).

هو الشّيخ محمّد باقر ابن الشيخ محمّد تقي المجلسي، قال الحرّ العاملي عنه: «مولانا الجليل محمّد باقر بن مولانا محمّد تقي المجلسي، عالم، فاضل، ماهر، محقّق، مدقّق، علاّمة، فهّامة، فقيه، متكلّم، محدِّث، ثقة ثقة، جامع للمحاسن والفضائل، جليل القدر، عظيم الشأن».

وقال عنه الشيخ يوسف البحراني (ت: 1171 للهجرة) في (لؤلؤة البحرين): «..لم يوجد له في عصره، ولا قبله ولا بعده، قرينٌ في ترويج الدِّين، وإحياء شريعة سيّد المرسَلين، بالتّصنيف والتّأليف، والأمر والنّهي، وقَمْع المعتدين والمخالفين من أهل الأهواء والبِدَع والمعاندين.

من أشهر مؤلّفاته كتاب بحار الأنوار في 110 مجلدات، وكتاب مرآة العقول في شرح أصول الكافي في 26 مجلداً، وله كتب عديدة أخرى.

5- كتاب (إكسير العبادات في أسرار الشهادات)، للملا آغا بن عابد المعروف بالفاضل الدربندي (ت: 1285هـ أو 1286هـ).

هو المولى العلامة الفاضل الملا السيد آغا بن عابد بن رمضان بن زاهد الشيرواني الحائري المعروف بالفاضل الدربندي، قال عنه الشيخ الآغا برزك الطهراني: هو أحد نماذج السلف الصالح الذين يحق لنا الاعتزاز بهم والإشادة بذكرهم.

وقال عنه السيد الأمين في أعيان الشيعة (... فقيه أصولي متكلّم محقّق مدقّق جامع للمعقول والمنقول، خرج من دربندر إلى كربلاء لطلب العلم وناصب البابية أيام ظهورهم بكربلاء وحاولوا اغتياله في داره فدافع عن نفسه إلى أن هرب ولكنه جرح جراحًا بالغة في وجهه).

وذكر عنه معاصره التنكابني في قصص العلماء أنّه: "صدف الفقاهة والاجتهاد، عالم عامل مسدّد، فذلك حكماء الإسلام، قدوة أرباب الكلام، وفي الحقيقة علاّمة هذه الأزمنة ووحيد الأمكنة، من تلاميذ شريف العلماء"[1].

من كتبه الرسالة العملية وهي مجموعة فتاواه للناس، وكتاب خزائن الأصول، والقواميس في علم الرجال، والفن الأعلى في الاعتقادات.

[1] – قصص العلماء، الميرزا محمد بن سليمان التنكابني، ص187.

6 – كتاب (تذكرة الشهداء)، للملا حبيب الله شريف الكاشاني (1262هـ – 1340هـ).

من الفقهاء المكثرين في التأليف وله حوالي 200 مؤلّف في مختلف العلوم الدينية كالفقه والأصول والدراية والعقيدة وشرح الأدعية، وهو من الفقهاء المراجع العاملين في كاشان، قال عنه الآغا بزرك الطهراني: عالم فقيه، ورئيس جليل، ومؤلّف مروّج مكثر.

من مؤلّفاته: الأنوار السانحة في تفسير سورة الفاتحة، إيضاح الرياض، بوارق القهر في تفسير سورة الدهر، منية الأصول نظم عربي في الدراية، نخبة التبيان في علم البيان[1].

7 – كتاب (الفوادح الحسينية)، للعلامة الشيخ حسين البحراني (ت: 1125هـ).

الشيخ حسين بن محمد بن أحمد بن إبراهيم المتوفى في سنة 1125هـ، قال عنه صاحب الأنوار: "كان من العلماء الربّانيين والفضلاء المتتبعين،

[1] – راجع تذكرة الشهداء، ص7 –9.

والحافظ الماهر، من أجلّة متأخري المتأخرين، وأساطين المذهب والدين".

وهو علامة واسع العطاء تتلمذ عليه الكثير من العلماء، وجادت محبرته العديد من المؤلفات القيّمة، منها موسوعته الفقيه (الأنوار اللوامع في شرح مفاتيح الشرائع)، الرواشح السبحانية في شرح الكفاية الخراسانية في خمسة مجلدات، السوانح النظرية في شرح البداية الحرية في ستة مجلدات، الحقائق الفاخرة في تتميم الحدائق الناظرة في مجلدين، منظومة في النحو، الجنّة الواقية في أحكام التقية، محاسن الاعتقاد وسداد العباد، وهي رسالة عملية لمن يرجع إليه في الفتوى، وقد كان العديد من أهل البحرين والقطيف يرجعون له في التقليد وإلى زماننا هذا، باعتبار مسلكه الأخباري الذي يجيز التقليد للميت ابتداء.

له عدة كتب في التعزية الحسينية، منها مريق الدموع في ليالي الأسبوع، وله كتاب في التعزية اشتمل على ثلاثين مجلساً للشهر كلّه،

وكتاب الفوادح لتعازي عشر المحرم، قال عنه الشيخ علي البحراني في أنوار البدرين: وهو كتاب جليل[1].

إلى هنا نكتفي بما ذكرناه لتبيان أنّ تلك المقاتل التي وقع عليها الهجوم والتعميم في التوصيف لم تخرج عن جهلاء باللغة ولا بالدراية والرجال أو بعلوم الفقه والأصول، بل هم من روّاد هذه العلوم ومن المتمكّنين منها، وقد تصدّوا للفتيا فكانوا من كبار الفقهاء.

وهناك كتب أخرى عديدة، أحجمنا عن ذكر تفصيلها رعاية للاختصار، ولا بأس بذكر بعض الأسماء منها لتكتمل الإشارة لكتب المقاتل التي صدرت في القرون الأربعة الماضية من العاشر وحتى الرابع عشر.

من الكتب التي صنّفها بعض الباحثين ضمن الكتب غير المعتبرة بل والمهملة، كتاب (معالي السبطين في أحوال السبطين الحسن

[1] – أنوار البدرين، الشيخ علي البحراني، ص201.

والحسين)، لمحمد مهدي الحائري المازندراني (ت: 1300 – 1385هـ)، وكتاب (تظلم الزهراء من إهراق دماء العباد)، لرضي بن نبي القزويني (عاش سنة 1134 هـ)، وكتاب (الدمعة الساكبة) لمحمد باقر البهبهاني (ت: 1258) وهو من تلاميذ الدربندي، وكتاب (عنوان الكلام)، لمحمد باقر الفشاركي (ت: 1314هـ) من فقهاء أصفهان، كان مختصاً بالفقه وكان خطيباً وواعظاً، وكتاب (الكبريت الأحمر)، لمحمد باقر البيرجندي (1276 – 1352هـ).

الملاحظات النقدية على المقاتل المتأخّرة

لقد ذكرنا أنّ السمة العامة للمقاتل المتأخّرة من القرن العاشر وحتى الرابع عشر هي صيغة المقتل الحسيني بأدب مؤثّر ومهيّج للأحزان، كما اشتمل بعضها على مجالس مرتّبة ذات موضوعات عامة تركّزت على البلاء والسيرة والوعظ للارتباط بأهل البيت عليهم السلام وعدم الانصراف إلى الدنيا، وهي بمثابة مجالس يقرأها الخطيب في المحافل الحسينية.

والنظرات النقدية لا بدّ منها لكتب التاريخ سواء كانت كتب موثوقة أو غير موثوقة، وذلك لاستخلاص الصحيح عبر مقاربات ومقارنات، فحتى الكتاب الذي يُعد موثوقاً لم يسلم من الخطأ والسهو أو اللبس وما شابه ذلك، وقد عمل العلماء في المسار النقدي على هذه الدرجة من درجات النقد وهم يدوّنون كتبهم في المقاتل، فتراهم لا يقبلون أي شيء يُذكر، بل يقارنونه بما لديهم من ثوابت ويزنونه بغيره من الوقائع، فيختارون نصاً على نص، أو لا يقبلون عبارة هنا أو هناك ممّا لا يؤمنون بأنّها مناسبة، إلّا أن يكون همّهم جمع المشتت من الأخبار دون تحقيق فيها.

إنّ النقد المتأخّر قد أخذ يتسع بحالة من التعميم لجميع هذه المقاتل المتأخّرة، وهذا ما ينبغي الوقوف عنده والتأمّل فيه من أولئك الباحثين، حتى أنّهم صنّفوا المقاتل إلى ثلاثة أصناف، فمنها الموثوق، ومنها شبه الموثوق، ومنها المحرّف المليء بالأساطير والخرافات على حدّ تعبيرهم، وقد عدّوا تلك المقاتل منها، وهذا انحراف عن السليقة النقدية الحريصة على الوصول إلى الحقائق من خلال التأمّل في كافة المرويّات وتقليب

النظر وفتح باب الاحتمال غير المخالف لحكم شرعي، وغير المعارض لعقيدة صحيحة.

فممّا ذكروه لنقد هذه الطائفة من المقاتل التالي:

1- أنّها كانت تنطلق من منطلق البلاء، فكانت تشدّد على مسألة العطش والأسر والابتلاء.

2- أنّها كانت تقصد إثارة الحزن، فتبالغ في إظهار المأساة بدرجة أقوى.

3 - أنّها مليئة بالكذب والافتراء، لأنّ عقيدة المؤلّفين هي عدم الممانعة من استخدام أي وسيلة للوصول إلى ثواب البكاء الكبير ولو كان على حساب الأخبار الصحيحة، لأنّ الأخبار الصحيحة لا تحقق معاني الابتلاء والحزن المطلوبة لهم.

تبدو هذه النقاط الثلاث ذات محور واحد، وهو التبرير لنقل الرّوايات الضعيفة أو غير الصحيحة للوصول إلى هذه الغايات، وهي

إظهار شدّة الابتلاء الذي تعرّض له أهل البيت عليهم السلام، وإظهار مقدار الألم من أجل البكاء، والثالث هو اللجوء للكذب من أجل الإبكاء.

ولا يمكن التعليق على الغايات لأنّ الابتلاء الذي تعرّض له الإمام الحسين عليه السلام عظيم، والآلام والمصائب التي وقعت عليه لم يسبق لها مثيل بل هي أعظم مصيبة في السماوات والأرض، ولا يذكره مؤمن إلا استعبر، أما الكذب فهو محرّم إلّا لغايات الإصلاح أو الاضطرار وما شابه، ولكنّنا لم نجد من هؤلاء الأعلام من قال بجواز الكذب من أجل غاية الإبكاء، فإطلاق هذا التعميم يعتبر تجنّياً عليهم وقولاً بلا دليل.

هل يرى البعض جواز الكذب في نقل المقتل؟

هنالك فرق بين من يرى جواز الكذب في سبيل الوصول إلى الدمعة، وبين من يرى التسامح في أدلة السنن وقبول الأخبار الضعيفة المأخوذة من الكتب الموثوقة للوصول إليها، فإنّنا نرى تأكيد عدد من أولئك العلماء على رفض الكذب وحرمته في نقل الأخبار، وبالتالي حرمة نقل الخبر المعلوم كذبه.

فإنّ النراقي ذكر صريحاً أن مبناه هو جواز نقل الخبر الضعيف إذا لم يؤد على حكم وجوبي، ولكنه لا يقصد بذلك نقل الخبر المكذوب، والفرق بيّنٌ لكلّ ذي لب.

يقول البرغاني في كتابه مخزن البكاء، الذي وصفوه بالضعيف والذي لا يُعتمد عليه، موضحاً رؤيته في التدوين التاريخي: "باشرت بتأليف كتاب يحتوي كثيراً من الأحاديث الباعثة على البكاء في مراثي سيّد الشهداء، وكلّ خبر وأثر يكون مدعاة حزن وبكاء، يكفي في المقام ما لم يترتّب عليه حكم من الأحكام الشرعية، من هنا لم أبادر بتصحيح المسألة، وإنّما اقتصرت على الخبر، واكتفيت بوجوده في الكتب الموثوقة"[1].

فكان نقله من الكتب المشهورة والموثوقة عنده، وأكثر من نقل عنهم (بحار) المجلسي، و(مُنتخب) الطُرَيحي و(عوالم) البحراني.

[1] – مخزن البكاء، ص1، عن الملا آقا وتدوين المقتل، رسول جعفريان، ص 68.

على سبيل المثال، نجد الدربندي يقول في مقدّمة كتابه إكسير العبادات –وهو من المقاتل المرمية بالخرافة والكذب–، بتعبير واضح بحرمة نقل الخبر المكذوب، ويبيّن منهجه في القبول، إذ يقول: ليس صحيحاً نقل أمور لا أصل لها ولا أساس لها في مؤلّفات العلماء والمؤرّخين وأخبارهم وكتبهم. وهنا تناول بالبحث موضوعاً خاصّاً ربما أشكلوا عليه فيه، وهو النقل عن الشيخ حسين بن العصفور البحراني المتهم بأنّه كان يرى صحّة وضع الأخبار الخاصة بمضاعفة عدد الأعداء في كربلاء بغية زيادة حدّة البكاء والحزن، وهو – الدربندي– يرى ذلك اتهاماً خاطئاً: (فليس هذا الانتساب إلّا من الفرية المحض ومحض الفرية)[1].

اتهام علماء البحرين القدامى بتجويز الكذب

من الملاحظات المهمّة التي ينبغي توخّي الحذر فيها هو التعميم المناطقي في الرواية، وكما قدّمنا الإشكال على التعميم عبر القرون في

[1] – الملا آقا الدربندي وتدوين المقتل، ص94، رسول جعفريان، عن أسرار الشهادة.

المقاتل، فإنّ التوصيف المناطقي يصعب تقبّله أيضاً، خصوصاً إذا صدر من باحث محقّق[1]، فمن ذلك وصم علماء البحرين بأنّهم يجيزون الكذب في الروايات الشريفة، ومنها ما في المقاتل، ويدّعي أصحاب هذا التعميم أنّهم تفرّدوا بروايات لا أساس لها من الصحّة، بل هم الذين ملأوا الكتب بالأكاذيب والخرافات.

لذلك نجد السيد الدربندي في مقدمة كتابه يدافع عن اتهام الشيخ حسين العصفور بتبني هذا الرأي، ويقول إنّ هذا الفرية المحض ومحض الفرية، أي لا أساس لها من الصحّة أصلاً.

ثمّ إنّه لو ثبت في حقّ واحد، فكيف يسوغ لنا أن نتهم الجميع بذلك؟! ولا نحتاج إلى جهد في الإشارة إلى جهود علماء البحرين في إعلاء راية الدين والولاء لأهل البيت عليهم السلام، ولا يُحبّذ الدخول في

[1] – انظر على سبيل المثال رسول جعفريان في كتابه (الأقا الدربندي وتدوينالمقتل) ص 100 حيث يعد الاستناد لكتاب الشيخ حسين العصفور من مثالب الدربندي، وكذلك ظهر تسجيل للشيخ الغروي يوصف أهل البحرين بأنهم مصدر تلك الأخبار المكذوبة.

حوارات ذات طابع إقليمي تركّز العصبية للبلدان دون النظر لقيم الحق[1]، إلّا أن ذكر المفارقات هو لبيان افتقار بعض التحقيق للتحقيق والإنصاف.

فمن المفارقات التي تُظهر عدم الاستواء المنهجي في النقد، نجد بعض المحقّقين يشنّع على رواية حديث التوسّل المشهور، ويدّعي من غير دليل أنّ العلامة المجلسي في البحار لم يذكره حين جاء به تلميذه الشيخ عبد الله صاحب العوالم من البحرين، لأنّ العلامة المجلسي لا يقبل إلّا الموثوق في كتاب البحار، وفي المقابل تجد هذا الناقد يشنّع على الدربندي ذكر رواية المحمل والسيدة زينب عليها السلام فيرفضها برغم رواية المجلسي لها في بحاره نقلاً عن ما أسماه (بعض الكتب المعتبرة)[2]، وهذه

[1] – مع أن الشهيد مطهري ينقل عن العلامة النوري في كتاب الملحمة، ج1، ص13، أن مصدر الأكاذيب على حد تعبيره هي كربلاء والنجف وإيران، وهو قول لا نرتضي تعميمه بهذه الصورة، ولكن بعض من اتبع منهج الشهيد مطهري يقلب التهمة على أهل البحرين، وكلا التهمتين باطلتين.

[2] – انظر بحار الأنوار، ج45، ص114.

مفارقة ومعها مفارقات كثيرة تظهر عدم الانسجام المنهجي في النقد عند بعض الباحثين.

وإذا طالعنا كتاب الفوادح الحسينية والقوادح البينية للعلامة الشيخ حسين العصفور البحراني، سنجده كتاباً مرتّباً على الليالي العاشورائية ليقرأ فيها، فينقل رواياته من المصادر المشهورة ككتاب الكافي وكامل الزيارات وأمالي الصدوق والخصال والخرائج وكتاب البصائر ومثير الأحزان وتفسير العسكري وغيرها ممّا هو مذكور مصدره، فيقوم بالتعليق واستثارة الأحزان وتحفيز المؤمن على الاندماج والتفاعل مع مصائب الإمام الحسين عليه السلام ويسرد شعراً بهذا القصد، وقد يذكر في بعض الأحيان ما هو مرسلاً بقوله (ورُوي) وهو هنا كما هو ظاهر قد نقلها من بعض المصادر وإن لم يذكر اسمها، ولكن هذا لا يُعدّ من الكذب بحال، لأنّه لم يختلقه من عنده، ونقله إنّما تكون عهدته على راويه، وإن اختلف معه في النقل إلّا أنّ ذلك لا يسمّى كذباً أبداً.

وهو الأسلوب الذي اتبعه ابن الأعثم والسيد ابن طاووس وغيرهم ممّا اعتبروها كتباً معتبرة يمكن التعويل عليها في النقل، فكيف

يسوغ لأولئك ولا يسوغ للعلامة الفقيه الكبير الشيخ حسين البحراني (رحمة الله عليه)؟!

مسألة التفريق بين الحديث الشريف والرواية التأريخية

إنّ التفريق مهم بين نقل الحديث الشريف عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام، والنصوص التاريخية الحاكية للوقائع والأحداث، وقد اعتبر الكثير من العلماء أنّ النقل التاريخي أخفّ مؤنة من نقل الحديث، فيكفي في التاريخ الوثوق العام واحتمال الصدق، أي لا يُنظر في نقلها السند المتّصل بقائله، بل حتى في الروايات الشريفة رأى الكثير من الفقهاء أنّ الوثوق بالمروي كاف في الأخذ به، والوثوق به يتمّ من خلال وجوده في الكتب المعتبرة، أو أن يكون محفوفاً بالقرائن الدالة على صدقه، أما في الأحاديث في المستحبّات فالمؤنة فيها أخفّ، وهذا ما عبّروا عنه بالتسامح في أدلّة السنن[1].

[1] – لقد خالف بعض التسامح من رأس، وبعض حدّده بوجوده في كتب الأصحاب المعتبرة، إلّا أنّهم يأخذون به لاحتفافه بالقرائن.

كما أنّ نقل الحديث بالمضمون جائز[1] وهو أهم من التاريخ، فإنّ النقل التاريخي قد نُقل بالمضمون، بل هو حكاية المؤرخ للوقائع من أساس، فلا يُمنع أن يصيغه غيره بصياغة مختلفة عنه، وبهذا جرت السيرة العقلائية والعُرف الخاص عند أهل الفن.

ومن الغريب ما بدأ به العلامة النوري (رحمه الله) من نقد حاد على بعض المقاتل المعاصرة له، ومنها كتاب الدربندي والنراقي والقزويني وغيرهم، حيث رفض نقل الروايات التاريخية المكذوبة على حدّ تعبيره، وهو أمر متفق عليه، إلّا أنّه في سياق الحديث عن النقل من غير سند، ولا يخفى أنّ العلامة النوري قد ساق الأحاديث الكثيرة في كتابه مستدرك وسائل الشيعة من الروايات المرسلة، بل روى بعضها معتقداً أنّها للمعصوم من غير أن يرويها راويها عن المعصوم صراحة، فكيف لا يصحّ في باب الحكاية للوقائع التاريخية مثل ذلك؟!

[1] – راجع الروايات في ذلك.

وفي مثال ما نقله الدربندي في مقاتل الشهداء وما فيها من أرقام وأعداد كبيرة، والتي أنكرها عليه العلامة النوري، باعتبارها أوّلاً: من كتاب نُسب لعالم من العلماء العامليين المعروفين ولكنهم لم يجدوا له كتاباً بهذا الاسم، وثانياً: لأنّ ما فيه من نقل مخالف للمشهور ويحتوي على مبالغات وكذب[1]. ونجد أنّ الدربندي في الجزء الثاني من كتابه، وبعد أن نقل من ذلك الكتاب كيفيات المقاتلة للشهداء وعدد القتلى الكبير وما شابه ذلك ممّا هو خلاف المشهور، قام بالتذييل بعد السرد، وأوضح أنّه أخذها من شخص سيد علوي اسمه السيد جعفر، ويظهر من كلامه أنّه يعرفه ويعرف أباه وجدّه وهم من الخطباء في مجالس الأعاظم في كربلاء، وهذا السيد يحدّث عن أبيه عن جدّه أنّ هذه النسخة من مصنّفات الشيخ الجليل شهاب الدين العاملي، ثمّ ذَكَر الدربندي نفسه حالها من الضعف ومخالفتها للمشهور، وقال في مسألة الوثاقة ما نصّه:

[1] – انظر اللؤلؤ والمرجان في أدب أهل المنبر، ص180، الشيخ حسين النوري الطبرسي.

"وبالجملة فإنّي في حال هذه النسخة في شك وريب، بل إنّ أمارات الوضع والجعل فيها ليست في غاية الخفاء"[1].

إذاً، فالسيد الدربندي متوافق مع العلامة النوري في مسألة الضعف، ولكنه لا يراها مقطوعة الكذب كما يصرّ على ذلك النوري بضرس قاطع، كما أنّه ردّ الإشكال وأجاب عنه بأنّ الأخبار غير مقطوعة الكذب، وهناك فرق بين المظنون الكذب والمقطوع، وذكر ما يدلّ على أنّه يصح النقل مع نسبة المنقول إلى ناقله والعهدة عليه.

أمّا في جانب دلالة النص ومضمون الأخبار فكان إصرار العلامة النوري على أنّها نكرة ومخالفة للدين والعقل، إلّا أنّ الفاضل الدربندي لا يوافقه في هذا القطع، ويراها ممكنة، وهنا يبدأ الحديث عن المضمون والدلالة فيفتح باباً للاحتمال والإمكان، ويذكر المسألة التي اشتهر بها

---

[1] – إكسير العبادات، ج2، ص306.

من توسعة يوم عاشوراء وبقاء الشمس في كبد السماء سبعين ساعة أو أكثر، وهذا ما يجعل أخبار ذلك الكتاب في ساحة الإمكان عنده.

وأنت ترى التباين في المباني، والتباين في نوع قراءة الدلالة، وهي السمة التي سوف نتحدّث عنها عند الفاضل الدربندي فيما بعد.

اختلاف المباني والغايات

فالحاصل أنّ أصحاب المقاتل المتأخرة هم من الفقهاء العظام والعلماء الكبار والخبراء في النقل وأهل التقوى والورع، المبرّأون من الكذب والتدليس، والمنزّهون عن الخرافة والأساطير، إنّ الاختلاف الحاصل في بعضها أو مع ما نُقل في بعضها لم يكن إلّا اختلافاً مبنائيّاً في درجة قبول الخبر التاريخي، وإلّا فإنهم غالباً ما ينقلون عن كتب معلومة معروفة مشهورة، والنزر اليسير من نقولاتهم كانت من مصادر لم يصرّحوا بها، وقد تكون من كتب لم تصلنا بعد، أو من كتب لم يُعلم مؤلّفوها.

كما أنّ المتتبع للمقاتل تلك سيجد قسماً من التحقيق الضمني والتمييز بين الأخبار بحسب قرائنهم أو مقارناتهم بين الأخبار، فيقبلون بشيء ويرفضون آخر، ونكتفي بذكر مثال واحد على هذا الشأن من كتاب (تظلّم الزهراء) للقزويني -الذي عدّه صاحب الملحمة الحسينية من المقاتل المرفوضة-، وهو أنّه قد امتنع عن تدوين رواية عرس القاسم لأسبابه التي ذكرها.

يقول في سياق ذكر مبارزة القاسم بن الحسن عليه السلام يوم العاشر: "أقول: ثمّ إنّه نقل في الكتب بروز قاسم بن الحسن عليه السلام ومبارزته، وليس فيها ذكر مصاهرته إلّا في المنتخب، فإنّه ذكر قصة مصاهرته، ولكن لمّا ذكر الفاضل المتبحّر أنّ هذه القصة لم يظفر بها في الكتب المعتبرة والروايات المعتمدة، وكأنّه لم يعتمد على هذا النقل فيه، صفحنا نحن أيضاً عن نقله، لأنّ الناقل أيضاً لم ينسب إلى أحد، بل قال: ونُقل"[1].

[1] – تظلّم الزهراء من اهراق دماء آل العباء، ج1، ص238، المولى نبي بن رضي القزويني.

أصناف المقاتل المتأخّرة

لم تكن المقاتل بشكل عام على نمط واحد، بل هي متعدّدة بتعدّد أغراضها، كمنهج المؤلّف وحاجة المجتمع والوضع السياسي العام، لذلك وإن عُدّت جميعها من المقاتل إلّا أنها في الحقيقة متباينة في نسبة اتصالها بالمَقتل كرواية تاريخية بحتة.

ويمكن تصنيف المقاتل المتأخرة على ثلاثة أصناف:

الأوّل: المقاتل التي اكتفت بذكر السيرة وترتيب أحداثها أسوة بالمقاتل القديمة، ولكن مع اتساع في مبنى قبول الخبر، فأصبحت أوسع من سابقاتها، من هذا الصنف كتاب (تذكرة الشهداء) للكاشاني، ومقتل البحار للمجلسي، والعوالم للبحراني.

الثاني: المقاتل التي كانت لها وظيفة التأثير في المتلقّي (حزناً واقتداء)، فأُلّفت وأُعدّت من أجل الخطابة ومزاولة إحياء عاشوراء وعموم ذكر الإمام الحسين عليه السلام والبكاء عليه والتفجّع لمصيبته، وقد عنون بعضها فصوله تحت مسمّى (المجلس)، فهي تذكر المقتل في سياقه

الفجيع مع التعليق المؤثّر السلوك ورفع المعرفة بفضائل أهل البيت عليهم السلام، والتخليل أو التذييل بالشعر، لتكتمل هيئة المجلس ويمكن للخطباء إلقاؤه، ومن هذا الصنف كتاب (روضة الشهداء) للكاشفي، و(المنتخب) للطريحي، و(والفوادح) للشيخ العصفور.

وأمّا كتاب (مخزن البكاء) للبرغاني فإنّه فرّق بين الكلام المهيّج ودوّنه تحت مسمّى (خطبة) فكتب ثمان خطب مؤثّرة على غرار المنتخب والفوادح، قبل أن يبدأ الكتاب بذكر السيرة الحسينية والمقتل، وكلّ الروايات والأخبار التي ساقها إنما تُشجّع على البكاء وتذكّر المصائب والآلام وتأثّر الأنبياء.

الثالث: هو سيرة المقتل في سياق رؤية تحليلية مدمجة بالمعارف الإسلامية، وأبرز مثال على هذا النوع ولعله المتفرّد فيه هو كتاب أسرار الشهادات للسيد الفاضل الدربندي (رحمة الله عليه).

الدربندي رائد الرؤية العقائدية في المقتل

لم يكن الفاضل الدربندي مقطوعاً عن الحوزات العلمية، ولم يكن طارئاً على المعارف الإسلامية، ولا دخيلاً على التدوين والتأليف، بل كان في أعلى درجات العلم وفي مصاف الفقهاء العظام، وقد تمكّن من كافة العلوم الدينية التي يحتاجها الفقيه، يوصّف قدراته معاصره الشيخ التنكابني بعبارات بليغة في معاناها إذ يقول في حقّه: "إنّ الملا آغا حوى المعقول وكان مؤسّساً في علم المنقول. وقد تكرّر القول من الأستاذ السند السيد إبراهيم: إنّ الملّا آغا من أهل علم الأصول فارجعوا إليه، وقد طابق مطالب المعقول في علم الكلام مع القوانين الشرعية، وكان في علم الرجال أوحد الرجال، ومحطّ رحال أهل الكمال، وكان معروفاً

في الفصاحة والبلاغة في بلاد العرب والعجم، بل لم أر في هذه الأعصار له ثانياً أو تالياً في الفصاحة والبلاغة، وكذلك في العربية"[1].

رؤية الفاضل الدربندي دوّنها في كتابه إكسير العبادات في أسرار الشهادات، والذي قام بتأليفه عند إقامته في كربلاء المقدّسة، وقد استمر في تأليفه ثمانية عشر شهراً فقط، وهو كتاب كبير، قد تفرّغ له بعد أن أمضى شطراً من حياته في الحوزات العلمية وفي التأليف المتخصّص في علم الأصول وعلم الفقه والدراية وغيرها، فقد ترسّخت قناعته بأن يصرف الباقي من عمره في خدمة سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام والبحث عن أسرار فاجعة الطف، وقد ذكر في كتابه: "ثمّ تأملت بعد ذلك وبحول الله وقوّته اهتديت إلى مطلب جليل، وهو أنّ سهر الليالي وصرف شطر من العمر لأجل تلك الأفكار والتصانيف، وإن كان لا يخلو عن أجر -إن شاء الله تعالى-، إلّا أنّ أولى ما يصرف فيه الأعمال، وأليق ما يوقع العاقل لأجله نفسه في المشقّات والمتاعب في أجواف

[1] - قصص العلماء، للتنكابني، ص188.

الليل وأطراف النهار، هو تصنيف كتاب يكون في مطالبه خاصية الإكسير الأعظم في الأمور الطبيعية، حيث إنّه يوصل الأجساد الفلزّية إلى مرتبة كماله، مع عدم تطرّق التغيّر والتبدّل إلى وصفه بمرور الدّهور ومضي الأعصار، ويكون فيه أيضاً بعض آثار أجساد الأئمّة الهداة.[1]

فكانت خطة الكتاب كالتالي: موضوعه مقتل سيد الشهداء، وفيه أبواب متصلة به كالبكاء والجزع والنوح على الإمام الحسين عليه السلام، وما يتعلق بزيارته، وسر قيام الإمام الحسين عليه السلام وشهادته، ثمّ قام بسرد المقتل بتفاصيله الدامية، فصار الكتاب مشتملاً على مقدّمات ومجالس، ولكلّ مقدمة ومجلس تذييلات بعدها، حيث يبيّن فيها العلل والوجوه والأسرار التي تُستنبط من القواعد المستفادة من الآيات والسنّة وأصول الحكمة الربانية.

[1] – إكسير العبادات في أسرار الشهادات، ج1، ص44، الفاضل الدربندي، تحقيق: الشيخ جمعة بادي والملا عباس الجمري.

لم يشنّع على كتاب في المقتل الحسيني كما تم التشنيع على كتاب أسرار الشهادات للدربندي، والتعريض به ككتاب لا يمكن الوثوق به ولا الاعتماد عليه ولا حتى النظر فيه.

ولقد وصلت المبالغات من التعميم على الكتاب إلى توصيف شخصية الدربندي ووصفه بأنّه شخصية غير سويّة وكأنّه مولع بالخرافات والأكاذيب بسبب عشقه للإمام الحسين عليه السلام، وهذا العشق ممّا أجمع عليه كافة من ترجم له، سواء الناقد المجحف أو القابل المنصف، إلّا أنّ النظرة المنهجية التي ينبغي النظر إليها في كتاب الدربندي هي الأجدى والأليق بالباحث الحصيف، لما يمكن أن ينتج عنه من فوائد في طريقة البحث، حتى مع الاختلاف في هذه الفكرة أو تلك.

وعليه فإنّ الاختلاف مع أطروحاته لا يمكن أن يؤدّي للاستخفاف وبساطة التعميم الخارجة أساساً عن الأدوات العلمية للمناقشة، فيمكن للمختلف أن ينطلق من مبانيه الخاصّة، أو يحاكم مباني السيد الدربندي فيُشكل عليها بما يمكنه الإشكال فيه.

للسيد الدربندي منهجية في قبول النصوص التأريخية، وهو الخبير بعلم الدراية والرجال، فإنّ الاختلاف معه أمر وارد، ولكن ضمن الضوابط المنهجية في المحاورة، فهو يوضّح سبب اعتباره للرواية التاريخية، واعتماده على الرؤى والأحلام[1] ذات المصادر الموثوقة على حد تعبيره، ولعلّه من النوادر الذين قالوا بذلك.

وقد سلك مسلك قبول بعض الكتب المختلف عليها، فيرى قبول مضامينها كالتفسير المنسوب للإمام الحسن العسكري عليه السلام، الأمر الذي تم التشنيع عليه به، وكذلك كتب أخرى هي محل تداول بين العلماء، فوضوح المنهج يمكّننا من المناقشة الواضحة والتفهّم المنصف، سواء قبلنا بما يقول أو رفضناه.

[1] – مشهور علماء الشيعة أو إجماعهم على رفض الاستعانة بالأحلام في الأحكام الشرعية وتأسيس الاعتقادات، وقد ذكرنا ذلك مفصّلاً في كتابا منامات الإمام الحسين (ع) وكتاب الامام الحسين وعالم الرؤى.

تأثير الدربندي في طريقة النظر لواقعة الطف

والملاحظ -برغم المجابهة التي تلقّاها الدربندي في مشروعه حول فهم فاجعة الطف- أنّه كان ذا تأثير واسع، ليس على المجتمع وأصحاب المنبر في زمانه وحسب كما يقرّ بذلك الناقدون، بل تعدّى التأثير إلى رعيل الفقهاء الذين جاؤوا بعده، ودخلت منهجيته في التفكير في مناهج الفقهاء حتى عصرنا الحاضر، سواء شعروا بذلك أو لم يشعروا، فالتأثير العلمي قد يحصل حتى من المختلف، لأنّ المتعاطي مع الحدث وهو يعي الأطروحات المتعدّدة فيه، سيضع كل ذلك في حسبان تفكيره، والتأثير المقصود ليس مطلق الموافقة في النتائج، بل في منهجية التفكير وطريقة النظر، وطبيعة الأسئلة المثارة حول الأحداث والوقائع والأقوال.

المنهج الذي نعنيه في تأثيره هو اندماج الأبعاد العقائدية في فهم الأحداث، ومحاولة فهمها ضمن الأسس والأصول الاعتقادية، هذا من جانب، ومن جانب آخر استعمال الأدوات الفقهية في قبول النص التاريخي مقابل النص الفقهي وغير ذلك من إفرازات فقهية.

يقول رسول جعفريان في كتابه عن الآغا الدربندي في الجانب الكلامي (العقائدي): "إنّ للدربندي ولعاً خاصّاً باستنباط الأبحاث الكلامية في ما يتعلّق بعاشوراء، وفي الحقيقة إنّه جعل عاشوراء محوراً للكثير من البحوث الكلامية، ويسعى لأن يبلور استنتاجات كلامية مثالية في طبيعتها لبيان منزلة الأئّمة وبعض الشخصيات من أهل البيت مثل العباس وعلي الأكبر والشهداء أيضاً في النظام الكوني، ويمكن عدّ هذا الجانب من إضافاته في الكلام عند الشيعة، فهي أبحاث إمّا لم تكن موجودة من أساس، أو أنّها كانت موجودة لكنها لم تطرح بهذا المستوى. وبعض المسائل بسيط، وبعضها أبحاث كلامية معقّدة، وفي الوقت نفسه هنالك عدد منها تحليلي يمتاز بجاذبية خاصّة"[1].

لذلك أصبح الفقهاء يتعاطون مع كربلاء بحساسية أكبر ويولون أحداثها وشعائرها أهمية أوسع، وينظرون لشخوصها بقداسة أعلى، ففي الوقت الذي يعيب عليه بعض الباحثين المعاصرين نظرته لمقامات

[1] – الآغا الدربندي وتدوين المقتل، ص114، رسول جعفريان.

أهل البيت عليهم السلام مقابل مقام الأنبياء، ويعتبرون ذلك من الغلو، وهو أمر قد تجاوزته ساحات المعرفة ففضل أهل البيت عليهم السلام جليّ ومقامهم عليّ لا يُعلى عليه، ففي ذلك الحال النقدي نجد أن صورة العباس بن علي عليه السلام ما قبل الدربندي مختلفة عن ما بعده في الوعي الديني العام للشيعة وعند العلماء كذلك، وهكذا صورة السيدة زينب عليها السلام والقاسم عليه السلام وعلي الأكبر عليه السلام وعلي الأصغر عليه السلام، بل وسائر الشهداء الذين وقف عندهم في كتابه وقفات أمعن في تعميق التفكير في جوانبها المتعدّدة، فقد تبيّن مقام هذه الشخوص في عظمتها المسطورة في نصوص أهل البيت عليهم السلام وفي زياراتهم المنصوصة، وأصبحت -بعد الدربندي- الحوارات التي جرت في كربلاء محلّ عناية، وكذلك الأحداث والوقائع فيها محل تأمّل أعمق من ذي قبل.

فأمام الرؤية التحليلية عند الدربندي في وقائع عاشوراء انبجست معارف عديدة من واقعة الطف، وأصبحت كربلاء بحق دائرة معارف في كلّ انعطافاتها، فالدربندي لا يمرّ على عبارة (الآن انكسر ظهري) مرور الكرام، بل يقف عندها ويتأمّلها ويسبر أغارها، ويُدخل

المقارنات بين أبي الفضل العباس وعلي الأكبر عليهما السلام، فهو يحلّق في سماء تلك الشخوص التالية تلو المعصوم ويعرّفنا بعظمتها.

بالمقارنة بين رؤية الدربندي والرؤية النقدية لبعض الباحثين نجد البون الشاسع في المضمون المعرفي الاعتقادي بينها، فالدربندي يقدّم السيدة زينب عليها السلام كشخص في مقام العصمة ينحدر عنها السيل ولا يرقى إليها الطير، فهي العالمة غير المعلّمة التي تفرغ على لسان أبيها أمير المؤمنين عليه السلام، بينما في بعض الرؤى النقدية أنّها لا يمكن أن تروي وصية أمها الزهراء عليها السلام في عاشوراء، لأنّها كانت مجرّد طفلة صغيرة أنّى لها التذكّر، ولعلّهم نسوا أنّها من رواة الخطبة العظيمة لأمها الزهراء عليها السلام!

العقيدة الخالصة والتأثير الكلامي

ولو ذهبنا إلى أبعد من ذلك يمكننا ملاحظة التعاطي عند بعض علمائنا الأجلاء في القرون الأولى مع أسباب خروج الإمام الحسين عليه السلام وقيامه بالنهضة ضد يزيد، فهي نظرة مشبعة بنَفَسِ علم الكلام، ذلك العلم الجاف الجامد من أيّ روح معرفية دينية، لأنّه يعتمد محاكاة

الآخرين من خلال المشتركات بينهم، أو يحاول بحث القضايا الدينية من منظور عقلي بحسب ما يفهمه من العقل، فتتعدّد الإجابات عن أسباب خروج الإمام الحسين عليه السلام، فتتصدر رؤية السيد الشريف المرتضى (ت: 436) رحمة الله عليه، بأنّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما خرج لغلبة الظن بأنّه سوف ينتصر وسيصل إلى حقّه، لذلك وجب عليه القيام، ولم يتحرّك إلّا بعد أن استوثق من هذا الظن عبر عهود ومواثيق أهل الكوفة، وأمّا الشيخ المفيد رحمة الله عليه، فهو يجيب عن سؤال كيف يصير الإمام إلى الكوفة وهو يعلم أنّهم يخذلونه، بقوله: "فأمّا علم الإمام الحسين عليه السلام بأنّ أهل الكوفة خاذلوه فلسنا نقطع على ذلك، إذ لا حجّة عليه من عقل ولا سمع"[1].

أمثال هذه الرؤية ساقت النجف آبادي مؤلّف كتاب (الشهيد الخالد) وغيره للتأكيد على أصالتها وإفراغ التحرك الحسيني من أي

---

[1] – مع الركب الحسيني، ج1، ص22، نقلاً عن تنزيه الأنبياء للشريف المرتضى، والمسائل العكبرية للشيخ المفيد.

قدسية ربّانية أو عمق معرفي، فحرّر على أوراقه أنّ الإمام الحسين عليه السلام إنّما خرج بتخطيط يظّن فيه تأسيس حكومة إسلامية، ودون أن يتوقّع شهادته وهزيمة جيشه، مستعيناً بين فينة وأخرى برأي الشريف المرتضى والشيخ المفيد، وقد طُبع كتابه (الشهيد الخالد) في إيران سنة 1951م، ولكن هذه الأطروحة قد جوبهت بالنقد من قِبل العلماء، فكتب المرجع الديني الفقيه الشيخ لطف الله الصافي الكلبايكاني كتابه (النهضة الحسينية وعلم الإمام) رداً على كتاب الشهيد الخالد، وقد أجاد بردّه الوافي الذي أجلى فيه الغايات الكبرى للمسيرة الحسينية، وارتباطها بالأمر الإلهي وعوائدها المستقبلية على الدين.

أمّا الدربندي فهو ينظر للإمامة والولاية كأسمى مقام، ويرى الإمام الحسين عليه السلام هو العالم العارف بمآلات الأمور، وهو الأخبر بما سينتهي إليه الخروج، وهذا البُعد المعرفي هو ما استظهره الدربندي وأثاره بشكل ملحوظ في التفكير الشيعي، في وقت كانت الصبغة الكلامية سائدة في بسط الدليل الاعتقادي.

وإن كان الدربندي يسوق أسباباً عديدة لخروج الإمام عليه السلام وبعضها قد لا يكون محلّ قبول أساساً، كتصريحه بأنّ أحد أهداف قيام الإمام الحسين عليه السلام هو التكفير عن ذنوب الشيعة أو فداؤهم، إلّا أنّنا نسوق الأبعاد المنهجية في التفكير ذي النزعة الاعتقادية والاستفادة منها في وعي حركة المعصومين عليهم السلام والوقائع التي تقع عليهم.

وقد يكون رأي الشريف المرتضى والشيخ المفيد (قدس الله سرهما) مستغرباً، وقد يكون ذلك مثاراً للفهم الخاطئ في حق التشيّع أو في حقّهما، كما فعل بعض من أراد الترويج لتشيّع آخر كان في القرون الأولى، ومن أراد التشنيع على بعض أعلام الطائفة رحمة الله عليهم، إلّا أنّ المدقّق في خطاباتهم وأجوبتهم في المسائل الاعتقادية سيجد أنّها نسجت بتفكير كلامي، حيث كان الجدل الكلامي في قمّته بين الأشاعرة والمعتزلة، هذا من جهة، ووجود وتمكّن السلطات الحاكمة المتربّصة للخطاب الشيعي من جهة أخرى، فهي أسباب دعت لعرض الأفكار الشيعية بثوب كلامي ليكون مقبولاً ومقنعاً عند البعض حسب منهج التفكير السائد حينها، والدليل على ذلك أنّنا نجد رؤى مخالفة

للعلماء في كتبهم الأخرى التي تمكّنوا من عرض معتقداتهم فيها بشكل أصفى، فإنّ الشيخ المفيد على سبيل المثال هو المجيب في ذلك السؤال عن عدم علم الإمام عليه السلام، فإنّه يذكر في كتابه أوائل المقالات خلاف ذلك الرأي، يقول: "إنّ الأئمّة من آل محمّد عليهم السلام قد كانوا يعرفون ضمائر بعض العباد، ويعرفون ما يكون قبل كونه.."[1]. مع ذلك فإنّه من غير المستبعد أن بعض العلماء كان متأثّراً بالمسائل الكلامية في صياغة العقيدة، وهذا كلام يستحق الدراسة، وليس هذا محل بحثه.

وهناك نماذج لا يسع المقام للخوض فيها، فالنقطة الأساس أنّ للدربندي رؤية تحليلية للأحداث أدخل في مضمونها الأبعاد الاعتقادية، والأبعاد الفقهية في أدواتها، فإن تفهّم ما يقوله سيصبح أهون عند معرفة الأسس والمنطلقات التي اعتمدها في فهمه للأحداث الكربلائية المحورية بحسب رأيه.

[1] – مع الركب الحسيني، ج1، ص23، عن كتاب أوائل المقالات للشيخ المفيد.

لم يختلق الفاضل الدربندي التوجّه الاعتقادي في المقتل الحسيني من عند نفسه، ولم يبتدع ما لم يكن له وجود، وإنما جاء في سياق تطوّر الانعتاق من الباحث الكلامية في التفكير الشيعي، وتطوّر نزوع العلماء نحو بلورة الرؤية الاعتقادية خالصة دون مؤثّرات المباحث الكلامية التي كان واقع العيش المتعدّد في بغداد يفرضها على العلماء في أطروحاتهم للمعتقد الشيعي، لمجاراة الكلاميين والإجابة على إشكالاتهم.

فكان جهد الفاضل الدربندي في سياق بلورة المعتقدات الشيعية الخالصة بالأدوات الشيعية وللعقلية الشيعية تحديداً، فأصبح كتابه إكسير العبادات في أسرار الشهادات ثورة صارخة في هذا السياق.

ويُضاف إلى ذلك التأثير تأثير آخر، وهو المُلامس للنتائج الفقهية والفتاوى في الشعائر الحسينية التي كانت تعاب على الدربندي حينها، فقد أصبحت آراء مشهور الفقهاء المعاصرين بالرغم من وجود بعض المخالفين، إلّا أن جمعاً من أجلّاء الفقهاء وكبارهم قد أفتوا بجواز

الشعائر بأنواعها ضمن ضوابطها الفقهية المقرّرة في محلّها، وهذا يُعدّ أثراً كبيراً لما أثاره الفاضل الدربندي في كتابه أسرار الشهادات.

فلا يسع المقام لذكر النماذج فيها وهي أكثر من أن تحصى، فما على القارئ إلّا أن يجول ببصره في الكتب الصادرة عن السيرة الحسينية وعن شعائر الإمام الحسين عليه السلام، ليجد المحورية المعرفية لكربلاء ظاهرة، والاستثناء الوجودي والكوني والتشريعي متداولاً بين العلماء، وتراهم يهتمون بتعميق البحوث الحسينية لاستخراج كنوزها، وهذا التوجّه وهذه الإرادة كافية في تأثير جهود الدربندي في الأبحاث اللاحقة له، وإن اُختُلِف معه في بعض النتائج.

استمرار المقاتل الموثّقة

بعد بيان الخط البياني للتطوّر المنهجي لتدوين المقتل الحسيني، نتساءل هل شهدت القرون الأخيرة نهاية المقاتل الموثّقة على غرار المقاتل الأولى؟

إنّ أكثر الدراسات التي تناولت تاريخ المقاتل الحسينية، بل نكاد أن نقول كلّها، أو لا أقل في حدود اطلاعنا، تُظهر حركة التدوين الموثّق قد انتهت من الوجود وتوقّفت عجلتها عن النمو والتطوّر، ومحطة التوقّف كانت عند القرن الخامس أو السابع الهجري، وأنّ ما بعدها لم يكن إلّا صياغة للأكاذيب والخرافات على حدّ تعبيرهم.

لكنّنا أثبتنا أنّ هناك من المقاتل الموثّقة في القرون التالية للسابع، وذكرنا بعض ما دُوّن في القرن الثامن والتاسع والعاشر، وأمّا القرون المتأخرة فإنّه قد دُوّنتْ بعض المقاتل بمنهجية التدوين التوثيقي مع ذكر

المصادر ودخول التحليل العقلي والعلمي للتميز بين المقبول من غير المقبول.

كانت تجربة فرهاد ميرزا (ت: 1305هـ) في كتاب (القمقام الزخّار والصمصام البتّار) -وسط التدوين ذي السمة الأدبية والذي أعدّه مؤلفوها غالباً للقراءة في مجالس التعزية- تجربة مختلفة عن السائد، فحاول أن يجمع فيه ما جرى على الإمام الحسين عليه السلام من المقاتل المعتبرة والموثوقة، ووثّق النقل فيه، وقد استبعد بعض الأخبار لعدم اعتبارها.

ولقد كان لفرهاد في كتابه هذا بعض التحليل والمقابلات النافعة لبيان معاني المواقف الصادرة عن أهل بيت النبّوة وبين أعدائهم، هذا التحليل بهذا القدر يضيف إليه ميزة جيدة.

وكذلك كتاب: (ناسخ التواريخ) من تأليف الأديب الخبير مستوفي الديوان ميرزا محمد تقي الكاشاني (ت: 1297هـ)، المعروف بـ(سمهر) والملقب بـ(لسان الملك)، وقد جاء كتابه الذي أرّخ فيه تاريخ الأنبياء حتى انتهى إلى تاريخ النبي محمد صلى الله عليه وآله وما بعده حتى وصل إلى تاريخ

الإمام الحسين عليه السلام وذكر وقائع الطف بترتيب زمني، حاول فيه أن يكون موثّقاً بالمصادر التي استقى منها الأخبار، وأن يكون مستوعباً شاملاً، بل ومغنياً عن جميع كتب التاريخ، لذلك اسماه بناسخ التواريخ.

وكتاب (نفس المهموم في مصيبة سيدنا الحسين المظلوم) للمحدّث الشيخ عباس القمي (ت: 1359هـ)، وهو مقسّم إلى فصول ابتدأها في ذكر مناقب الإمام الحسين عليه السلام وثواب البكاء على مصيبته واللعن على قتلته، ثمّ ذكر ما جرى على الإمام الحسين بعد بيعة الناس ليزيد، ثمّ ذكر مسيره إلى كربلاء ومقتله ومقتل أولاده وأنصاره، وذكر حوادث ما بعد المقتل.

لقد اعتمد فيه القمي -وهو تلميذ العلاّمة النوري الناقد بحدّة لبعض كتب المقاتل كالدربندي- على المصادر المشهورة والمعتبرة عنده، وكان من مصادره بعض المقاتل التي دُوّنت بعد القرن السابع الهجري، الأمر الذي يؤكّد أنّ الوثوق أعم من حصره في كتب القرون الأولى، وقد ذكر في مقدّمته أسماء الكتب الموثوقة التي اعتمدها، وكان منها كتب قد أُلّفت في القرن الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر، مثل

كتاب (الفصول المهمة في معرفة الأئمّة) للشيخ نور الدين علي بن محمد المكي المعروف بابن الصباغ المالكي (ت:855هـ)، وكتاب (روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء) في نهاية القرن التاسع أو بداية العاشر، وهو للمؤرّخ محمد بن خاوند شاه المتوفّى سنة (903هـ)، كما وينقل عن مقتل محمد بن أبي طالب الموسوي الحسيني الحائري (تسلية المجالس) الذي اعتبره البعض مجهولاً، ينقل عنه بتوسّط كتاب بحار الأنوار للعلامة المجلسي في القرن الثاني عشر الهجري.

كما نذكر من المقاتل الحديثة (مقتل الحسين) للسيد عبد الرزاق المقرّم (ت: 1391هـ) وهو من الكتب الشهيرة، وحبّره المقرّم بأدب رفيع، وزاول فيه التحقيق والتوجيه، وقد استعان بالكثير من المصادر القديمة المشتهرة وغير المشتهرة، ومنها المنتخب للطريحي، وتظلّم الزهراء عليها السلام، وأسرار الشهادة، ومقتل العوالم.

ومن المَقاتل المتأخرة كتاب (ذريعة النجاة) التاريخ الكامل لواقعة كربلاء، طبع لأوّل مرة سنة 1300هـ، ثم طبع عدّة مرات، ألّفه مؤلّفه المولى محمد رفيع الكرمرودي التبريزي (ت: 1330هـ) باللغة العربية،

ثمّ ترجمه للفارسية، ويبحث فيه الحكمة من خروج الإمام عليه السلام ويعرض الآراء فيها، ثمّ يشرع في ذكر سيرة المقتل بشكل مفصّل، واعتمد الكثير من المصادر المشهورة، وممّا اعتمده كتاب تظلّم الزهراء عليها السلام، والمنتخب للطريحي، والدمعة الساكبة.

ومنها كتاب (مقتل الإمام الحسين عليه السلام)، لآية الله السيد محمد رضا الطبسي (ت: 1399هـ)، وهو من المؤلّفين المكثرين في جوانب عديدة، وكذا ذريته من المؤلّفين المعاصرين، ذكر في الكتاب سيرة عن الإمام الحسين عليه السلام وفضله وخصوصية زيارته، ثمّ شرع في ذكر وقائع المقتل، إلّا أنّه لم يكن كاملاً، حيث انتهى إلى استشهاد الشهداء في يوم العاشر، وقد اعتمد المصادر الشهيرة، ونقل كذلك من ناسخ التواريخ وتذكرة الشهداء.

والجهود التحقيقية في تاريخ المقتل الحسيني ما زالت مستمرّة في عصرنا الراهن، بل هي في تكاثر وتعدّد في نوعيتها، وقد صدرت موسوعات تهتمّ بالشأن الحسيني العام وبمقتله بشكل خاص، كما اهتم العديد من العلماء بجمع المقتل الحسيني بروايات المعصومين عليهم السلام،

إضافة إلى الكتب المتنوّعة في عرض وقراءة وتحليل سيرة الإمام الحسين عليه السلام وواقعة الطف الأليمة، وما زال العلماء ينهلون من عيونها التي لا تنضب، ويغترفون من معينها العذب الذي لا يتعكّر.

هل وصلت المعلومة الكربلائية إلى النهاية؟

في سياق الحديث عن تاريخ المقاتل لا بدّ أن نتساءل هل وصلنا إلى نهاية المقاتل الحسينية، فلم يعد من الممكن الحصول على وثائق جديدة تضاف للسيرة وواقعة الطف؟ وهل هناك كما يقول البعض ما هو خفي أكبر ممّا هو جلي؟

لقد كانت المكتبات الشيعية الضخمة موجودة في القرون الأولى إلى منتصف القرن الخامس وقبل دخول السلاجقة المعتدين أرض العراق وإيران، الذين قاموا بالاعتداء على التراث الشيعي الإمامي وحاولوا جهدهم تطميسه وإبادته من الوجود، يقول ياقوت الحموي عن مكتبة دار العلم التي كانت ببغداد وتختصّ بالشيعة الإمامية: (وبها كانت خزانة الكتب التي أوقفها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير بها الدولة

بن عضد الدولة، ولم يكن في الدنيا أحسن كتباً منها، كانت كلّها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولهم المحرّرة)[1].

فعند دخول طغرل بيك السلجوقي بغداد سنة 447هـ قام بإحراق المكتبة الكبرى، وأحرق مكتبة شيخ الطائفة الطوسي، ومع الطغيان الذي أظهره السلاجقة في إيران كذلك من تضييق الخناق على علماء الشيعة ومدارسها، فقد ضاعت الكثير من الكتب والمصادر المهمّة.

ولا شكّ أنّ ذلك له تأثيره الكبير على حركة التأليف وسعتها، وأرجع القدرات العلمية إلى الوراء، ففي الوقت الذي كانت للعلماء مساحة من الحرية ولهم مدارس ومكتبات ضخمة يلجؤون إليها للتحقيق والتأليف، ذهب كلّ ذلك أدراج الرياح، وساد الجو الخانق وصار الحصول على الكتاب صعب المنال.

---

[1] - معجم البلدان، ج1، ص534.

لكن هذه المحنة التي مرّت على الشيعة لا تعني أنّها أطبقت على كلّ إمكاناتهم، لأنّ التاريخ لا يحدّثنا عن نهب وحرق مكتبات خاصة أخرى غير مكتبة الشيخ الطوسي، ففي العراق باتساع أراضيه علماء متفرّقون، وكذلك في مناطق إيران على سعتها، بل كان في بعض المناطق تواجد شيعي كمجتمع منغلق على نفسه أشبه ما يكون بالحكم الذاتي، وهو ما يشير إلى توافر بعض الكتب في تلك البيوتات.

ومن جانب آخر فإنّ الكتب من خصائصها الانتشار، ومع تعدّد النسخ لا نشك أنّ الكثير من الكتب قد كانت متداولة في أقطار متعدّدة من البلاد الإسلامية، بل إنّ بعضها انتقل إلى مكتبات غربية بعد استعمار بعض الدول العربية، وهذا ما يجعل المحققين يبذلون جهودهم في البحث في كلّ الأماكن المحتملة للحصول على نسخ من الكتب التي تتصل بالمعارف الدينية من أجل تحقيقها وطباعتها، فإنّ الحصول على كتب خافية في الأزمان الماضية أمر ممكن، بل هو أمر حاصل في الواقع.

ينقل لنا النجاشي بسنده المتصل إلى داود بن القاسم الجعفري قال: عرضت على أبي محمد صاحب العسكر (عليه السلام) كتاب يوم وليلة

ليونس فقال لي: تصنيف من هذا؟ فقلت: تصنيف يونس مولى آل يقطين، فقال: أعطاه الله بكلّ حرف نوراً يوم القيامة[1].

هذا النص يبدو أنّه يشير إلى ظهور كتاب يونس بن عبد الرحمن بعد خفائه مدة من الزمن، لأنّ يونس كان من أصحاب الإمام الكاظم عليه السلام والرضا عليه السلام، ويحتمل بسبب الظروف السياسية الصعبة أنّ الكتاب كان غير ظاهر التداول بين الشيعة، لذلك كان من المناسب أن يُعرض على الإمام الحسن العسكري عليه السلام من جديد ليتم الاستيثاق منه.

ينقل أحد المحققين المعاصرين أنّ هنالك الكثير من الكتب لازالت تحتاج إلى التحقيق، وتحتاج إلى جهود حثيثة لنقلها من القرطاس القديم والخط اليدوي إلى ورق حديث وتسوية متنها وتحقيقها.

[1] – موسوعة أحاديث أهل البيت (ع)، ج1، ص6، عن رجال النجاشي.

فإنّنا نرى بشكل مستمر وكلّما مرّت الأيام أنّ كتباً من التراث الإمامي القديم تظهر بين فينة وأخرى على يد محققيها، وبخصوص المقاتل الحسينية على سبيل المثال قد قام المحقق السيد محمد رضا الحسيني الجلالي المعاصر، بالتنقيب عن أحد مقاتل الإمام الحسين عليه السلام، وهو مقتل الفضيل بن الزبير الأسدي الذي كان مصاحباً لزيد بن علي الشهيد، وكان ممّن روى عنهم في مقتله عن من استشهد مع الإمام الحسين عليه السلام من الهاشميين والصحابة وغيرهم، وقد كان الكتاب مغموراً بين كتب الزيدية طيلة هذه القرون، حتى استخرجه المحقق الجلالي سنة 1306 هجرية[1]، وقام بتحقيقه ونشره.

فإنّ إمكان ظهور حقائق ووقائع جديدة في سيرة الإمام الحسين عليه السلام وفي مقتله وتفاصيل ما جرى عليه أمر ممكن، بل هو واقع لعظمة الحدث واهتمام الشيعة بتفاصيله المؤلمة، إلّا أنّ كتّاب السِيَر وأهل التدوين في المقتل الحسيني كان لهم مناهج ومقاصد متعدّدة في كتاباتهم،

[1] – انظر موسوعة المقاتل الحسينية، ج1، ص209. إعداد وتحقيق مؤسسة وارث الأنبياء.

فلم يوردوا كلّ ما كان، وبعضهم لم يصل إليه كلّ شيء، وبعضهم انتخب من الكثير قليلاً، ومن القليل ما يحقّق غايته.

هذه الحقيقة نجدها فيما ما ذكره بعض كتّاب المقتل الحسيني في مقدّمة كتابه، وهو مؤلّف مجهول ولكن الكتاب تم الحصول عليه وقام بتحقيقه الباحث رسول جعفريان، الذي قال عنه إنّ أسلوبه مناسب مع كتابات القرن الثالث والرابع الهجريين، وقد قال فيه معلقاً على حوادث كربلاء: "إنّ ما فصّلته من القول في سيرة الإمام الحسين عليه السلام ومقتله يُعدّ قليلاً جدّاً مع ما هو منقول عن الرواة والمحدّثين، وإنّ علّة هذا الشرح والتفصيل هي عدم وقوع مثل هذه الحادثة من قَبل الإسلام ولا من بعده، ولا يوجد لها مثيل حتى في الديانات الأخرى، بل لم يقع ما هو قريب منها أيضاً)[1]. فهو يقرّ بكثرة المروي والمحكي والمكتوب عن حادثة كربلاء في زمانه، إلّا أنّه انتخب منها اليسير.

[1] – عن النهضة الحسينية، ص50، عن مقتل الحسين (ع)، تحقيق رسول جعفريان، مجلة تراثنا الفصلية (فارسي)، العدد 48، ص244.

التحقيق وإعادة التحقيق

إن إعمال أدوات التحقيق بالغة الأهمية في كتب المقاتل، واستمرار الجهود في هذا الطريق من شأنه أن يقيم المائل ويرتق الفتق وينقّي السيرة من الشوائب والدخائل التي يمكن أن تكون قد دخلت بسبب السهو أو الجهل أو الوضع أو الحذف والنقص، ولكن الجهود التي بُذلت ليست نهاية التحقيق، ونتائجها ليست خاتمة النتائج، لأنّه كما يحصل الخطأ في التدوين ونسخ الكتب، كذلك يحصل في التحقيق، وعلى الأخص أنّ مناهج التحقيق ومبانيه تختلف من مبنى إلى آخر، والمعلومات التي تظهر بين فينة وأخرى على أيد المحققين ما زالت تقدم المزيد.

ويمكن أن نمثّل للرؤية المتبلورة حول المقتل المشهور المنسوب لأبي مخنف لوط بن يحيى، الذي كان متداولاً بين الناس، وقد انتهت التحقيقات الشهيرة إلى أنّ هذا الكتاب ليس للوط بن يحيى ذلك الراوي الثقة، وإنّما هي نسخة محرّفة ومختلقة، وقد نُسبت إليه زوراً.

وهذه النتيجة اشتهرت اشتهاراً بحيث لا تكاد ترى دراسة في المقاتل الحسينية إلّا وتذكرها كنتيجة مُتّفق عليها، إلّا أنّ الباب مفتوح لإعادة التحقيق في مثل هذه النتائج، فالأدلّة المُساقة يمكن المناقشة فيها ولو بإعادة ترميم الكتاب وتحقيقه كأي مقتل آخر عبر المقابلة وميزان الاحتمال غير المضر بالأصول والاعتقادات.

وقال العلاّمة آغا بُزُرك الطهراني: "مقتل أبي عبد الله الحسين عليه السلام لأبي مخنف... طبع على الحجر في بمّبي أيضاً مُنْضّماً إلى المجلد العاشر من البحار في سنة 1287، أوّله: حدثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي ...، ونسبته إليه مشهورة، لكن الظاهر أنّ فيه بعض الموضوعات، وقد حقّقه شيخنا النوري في اللؤلؤ والمرجان".

والكلام أنّ ميزان العلّامة النوري (ت: 1320هـ) يمكن الاختلاف فيه، فهو قد قابل النسخة المشهورة مع ما رواه الطبري عن أبي مخنف ووجد فيها اختلافاً، مع العلم أنّ رواية الطبري ليست نصّاً منزلاً، بل ينبغي فحصها كما بيّنا سابقاً، ومن مآخذ النوري أنّ في المقتل المتداول لأبي مخنف أموراً مُنكَرة، وهذه الأمور المُنكَرة قد يكون لها وجه

في قبولها أو قد تكون معتضدة بروايات أخرى وغير ذلك، وهو الأمر الذي وجدنا مناقشته عند غير واحد من الباحثين[1].

نعم، لقد أجاب الفقيه السيد جعفر علم الهدى البروجردي عن التوجّس من روايات الطبري عن أبي مخنف بقوله: "نعم، لكن بعد المقارنة مع ما نقله غير الطبري، كالمفيد في الإرشاد وابن الجوزي في تذكرة الخواص عن أبي مخنف أو عن محمد بن هشام، يطمئن بأنّ ما نقله الطبري من كتاب أبي مخنف صحيح"[2].

وقد طالعت كتاب اللؤلؤ والمرجان النسخة المعرّبة أخيراً، ومع بحثه مبحث الكذب طويلاً ومبحث التسامح في أدلّة السنن في سياق بيان ملاحظاته النقدية، قد وجدت أن جلّ ملاحظاته على سيرة خطباء المنبر الحسيني، وبعض روايات المقاتل، وغاية ما توصّل إليه هو رفض

---

[1] – انظر على سبيل المثال كربلاء فوق الشبهات للمحقق السيد جعفر مرتضى العاملي في نقده على الملحمة الحسينية والتي ساق في آراء العلامة النوري.

[2] – المباحث الحسينية، دورس فقهية واعتقادية حول الشعائر الحسينية، ج3، ص64، السيد جعفر علم الهدى البروجردي، تحقيق وتدوين السيد علي الرجائي.

الوقائع التي أسماها بالروايات المنكرة[1]، وكلّ ما ذكره من حيثيات هو تعجّبه منها وعدم وجودها في الكتب التي سبقتها واستبعاد الواقعة أو مخالفتها لمعطيات تاريخية أخرى، وهذا يعني أنّ المناقشات في باب القرائن والملازمات وهو شأن يُعمل فيه التعقّل بالمقارنات، الشأن الذي يبقى مفتوحاً ما لم تنكره أصول المعتقد وأحكام الشرع ونور العقل.

مسألة التحليل العقلي

مع تطوّر التعاطي مع حادثة كربلاء وواقعة الطف، ومن أجل انتقاء الأخبار الموثوقة والتي يراها الباحث متّسقة مع الحقيقة، عمل الباحثون على إدخال الأداة العقلية في تحليل الوقائع والحكم على النصوص قبولاً ورفضاً.

ومن هنا نشير إلى أن للجهد العقلي جانبين:

---

[1] – راجع كتاب اللؤلؤ والمرجان، من صفحة 195 التنبيه الرابع وما بعده.

الجانب الأول: هو الذي يزن الأحداث وفقاً لما يراه متوافقاً مع الفهم العام في عصره، وقد يسميه البعض بأنّه ميزان عقلي، فيرفض ما لم يعتد على سماعه أو ما هو مثار تعجب المجتمع منه أو محل عدم تقبل من الآخر له، تحت ذريعة بأنّه لا يُعقل أن يكون كذلك، وهذا المنحى يمكن أن نطلق عليه منحى التأثير الأجوائي أو الثقافي والذّوقي البعيد عن العقل.

إنّ الحدث المنافي للعقل هو حدوث ما لا يكون وليس عموم الاستغراب، فللعقل حكم ثابت وواضح، فمن الخطأ توصيف ما يكون مستغرباً أو ما يكون مستهجناً في الزمن الحاضر بأنّه مخالف للعقل، كأن تُرفض رواية زواج القاسم بن الحسن عليه السلام تحت ذريعة مخالفتها للعقل، فليس للحادثة أيّ صلة بالعقل، وإنّما هو استبعاد نفسي أو تحليلي. نعم، مَن ناقشها من جهة الوثوق وقرائنه فهو ملزم بمنهجه ذاك ليجريه على سائر الأحداث والوقائع، وهذا أمر مختلف، لأنّ الرفض قائم على عدم الوثوق بالرّواية بحسب المبنى المتبع، وهذا مُتفهّم، أمّا ما لا يمكن تفهّمه هو وزن الوقائع بحسب الذوق المعاصر

الذي ساهم التراكم الثقافي في تكوينه في وعي القارئ والباحث، ومن هنا ينبغي التجرّد عن كل المؤثّرات الثقافية، إلّا الوزن وفقاً لعلاقة الحدث بالأصول والثوابت[1].

الجانب الثاني: هو التحليل العقلي المقبول، الذي يفعّل العقل في قراءة النصوص، ويُعمل المقارنات بين المرويّات النادرة مع المشهورات من الوقائع والثابت منها، وهو ما انتهجه جمع من الأعلام حتى الذين صاغوا كتب المقتل على غرار الرواية التاريخية الخالية من التحليل، إلّا أنّك تجد هذا القدر من التحليل موجوداً وملاحظاً، وهو جانب مهم في فحص الرواية التاريخية والتمييز بين المتعارضين.

التحليل العقلي بهذا المستوى باتباع التعقل بين الأخبار، وباتباع المسلّمات العقلية التي لا يُختلف بها، يفتح الباب للاستفادة من كافة المصادر الواردة ومقابلتها مع (الأصول) و(الثوابت) الدينية، وفهم

[1] – انظر على سبيل المثال كتاب كربلاء فوق الشبهات للسيد جعفر مرتضى العاملي وهو نقد لكتاب الملحمة الحسينية للشهيد مطهري في ما يعتبره مخالفاً للعقل وهو ليس كذلك.

الأخبار في سياقاتها، وفتح باب الاحتمال والإمكان، والمقارنة بين المختلف من الأخبار، وجمع القرائن القريبة والبعيدة، من أجل الوصول إلى رؤية قريبة من الحقيقة التاريخية المنسجمة مع الدين ومقاصده.

وهذا النمط من التفكّر والتحليل أصبح سائداً في عصرنا الحاضر[1]، فقام جمع من العلماء بتدوين كتبهم على هذا النهج.

[1] – هذا النوع من التفكير لم يكن حادثاً، بل كان واضحاً عند العلماء، ولكن ظهوره في مجالات مختلفة، كمجال علم الرجال الذي تطوّر ونضج بشكل لافت، وذلك في التمييز بين الرجال ومواقفهم في الجرح والتعديل، يمكن النظر لها في بحث مثل شخصية زرارة وبني فضّال والمختار وغيرهم.

القراءة الحضارية في أحداث عاشوراء

من يحدّد الهدف من واقعة الطف الأليمة سيكون بحثه فيها متجهاً نحو ذلك الهدف ومحقّقاً له، فبعض يحصر الواقعة في حدود الحزن بحيث لا يكون لها معنى آخر، وبعض يراها متّجهة نحو إقامة الحكم الإسلامي دون اتصافها بأيّ مضامين أخرى، وهكذا نرى في واقع التعاطي مع واقعة الطف قد اختلف باختلاف جهة النظر، ولكن النظريات الحديثة حاولت فهم كربلاء فهماً شمولياً بتعدّد الغايات، بل تعدّد الفوائد، فمنها ما هو غايات ومنها ما هو نتائج، وفي كلّ الأحوال فإنّ كربلاء باعتبارها كنزاً في المعرفة وكنزاً للمنافع هو أمر حدّد عند الكثير من العلماء نوع النظرية التي يتبنونها.

فكربلاء بالإضافة إلى ما تحمل من الآم ينبغي استجلاؤها وإحياء أمرها والتفجّع بسببها، فهي قيم ونور وسفينة نجاة للأمّة إذا ما تأمّلت

فيها، ومن هنا فإنّ الجهود المعاصرة تُبذل من قِبَل العلماء في استثارة أحداث ومفاهيم كربلاء وتحليل مسيرتها الرّبانية واستظهار قيمها واستجلاء معارفها الواقعية، لتحقيق الهداية للأمّة ونجاتها بكربلاء الحسين عليه السلام.

وربما يقال إنّ هذا المبحث لا يمسّ المقاتل الحسينية بصلة، إلّا أنّه مع التأمّل قليلاً سنجد أنّ الواقع الاجتماعي المعاصر والظروف الشيعية التي تبلور فيها مفهوم خاص للمجالس الحسينية، هو واقع بل مرحلة تمّ فيها تحديد وظائف الخطيب ورسالة المنبر، وبلورت الكيفية العامة التي يؤدّى بها، فكان على الخطيب أن يحفظ سيرة المقتل ويحفظ الشعر الشجي، وزيادة على هذا أصبح ينظّم بحثه الموضوعي سواء المتصل بشكل مباشر بالمقتل أو بشكل غير مباشر.

هذا التطوّر في الوضع العام لإحياء ذكرى عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام أبرزَ الحاجة لفهم وقائع عاشوراء فهماً يرقى لمتطلبات الواقع ويغذّي نهم الجماهير، وهو أمر يتصل بإحياء أمر أهل البيت عليهم السلام بعنوانه العام الذي يندرج تحته إحياء أمر الإمام الحسين عليه السلام، فإنّ سعة

الرقعة الشيعية وجودياً في مختلف البلدان، واتجاه القوة الشيعية نحو التمكّن السياسي والاجتماعي، قد حفّز هذا الاتجاه للنمو، فيبحث سيرة المقتل الحسيني كنهضة حياة، أو كثورة على واقع ظالم، أو كتمكين لقيم الحق، وهي السيرة ذات المضامين العالية في مجال نهضة الأمّة ونجاتها الشاملة في الدنيا وفي الآخرة، ومنطلق ذلك (واقع والإمامة والولاية ومكانتها من قيادة الأمة)، وتحت الشعار الخالد وهو قول رسول الله صلى الله عليه وآله: (**إِنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فِي السَّمَاءِ أَكْبَرُ مِنْهُ فِي الْأَرْضِ، وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ عَنْ يَمِينِ عَرْشِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِصْبَاحُ هُدًى وَسَفِينَةُ نَجَاةٍ وَإِمَامٌ غَيْرُ وَهْنٍ وَعِزٌّ وَفَخْرٌ وَعِلْمٌ وَذُخْر**)[1]، والذي يُلخّص في المقولة الشهيرة: (الإمام الحسين عليه السلام عِبرة وعَبرة).

يقول المرجع الديني السيد محمد تقي المدرّسي: لا بدّ من قراءة التاريخ ككائن حي، فعند (دراستنا لسيرة الامام الحسين (عليه السلام) ومقتله في كربلاء، نعرف أنّ الامام الحسين (عليه السلام) استشهد بعد

[1] – عيون أخبار الرضا، ج1، ص60.

أن أصابه سهم في قلبه وجبهته ووقع من على ظهر الفرس مغشياً عليه.. الخ. ولكننا لا نفهم عمق هذه الاحداث والوقائع، لأنّنا ندرسها في حياة ميتة وليس في حياة بشر حي، ولا نستعرض في مخيلتنا أنّ هذا الانسان الذي هو من لحم ودم كيف يتألّم حينما يقع سهم في جبهته؟ وكيف يتعذّب حينما يذبح ابنه أمامه وفي حجره؟ وكيف يتألّم حينما يعلم بأنّ عائلته سوف تُسبى من ورائه؟ وحينما نتصوره واقعياً كبشر يتألّم وله وضع معين فإنّ نظرتنا ستختلف بالنسبة لهذا الرجل العظيم، وبالتالي ستختلف استفادتنا منه.

إنّ الكثير من الباحثين يقومون بدراسة ثورة الامام الحسين (عليه السلام) في كربلاء من بُعد واحد، وهو أنّ الامام الحسين خرج من المدينة قاصداً مكة وبقي فيها سبعة[1] أشهر، ثمّ جاء الى كربلاء وقتل فيها.

[1] – والصحيح أربعة أشهر.

ونحن نتسائل: هل يتحدّد كل ما في التاريخ بهذه الكلمات فقط؟

بالطبع لا.. فالإمام الحسين (عليه السلام) حينما خرج من المدينة المنوّرة كان له موقف من النظام الاقتصادي والاجتماعي، ومن التيارات والحركات والجبهات المتعدّدة التي كانت في المدينة.

وبمعرفة كيف كوّن (عليه السلام) وبأيّ مقياس علاقته الايجابية أو السلبية مع تلك الجبهات تتحدّد نظرتنا إلى خروج الامام، وكذلك نعرف الحكمة من وجوده في مكّة المكرمة، ونزوحه إلى كربلاء حينما هبط أرض العراق، وكيف كان وضعها الاقتصادي والاجتماعي، وكيف تحوّل أهل الكوفة بين عشية وضحاها من مؤيّدين لمسلم بن عقيل إلى مخالفين له، وما هي العناصر البشرية التي كانت موجودة في الكوفة، وكيف كانت نفسياتهم وجنسياتهم وأنظمتهم الاقتصادية والاجتماعية، وما هي سلوكياتهم ومدى عمق الشعور الديني فيهم؟ بل الأكثر من ذلك كيف كانت الوسائل المادية التقنية من المواصلات والأمور العسكرية في البلاد الإسلامية؟

وهذه الأمور كلّها يجب أن نعرفها حتى تتحدّد نظرتنا الواقعية بالنسبة إلى الإمام الحسين (عليه السلام) وشهادته المشهورة"[1].

إنّ الباعث على دراسة سيرة عاشوراء من منطلق الولاية والنجاة بها والاهتداء بنورها، ممّا يتطلّب منا استدعاء الأصل القرآني في قوله تعالى: **{قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}**[2]، ويقابله تاريخ أعداء الإمام ومناوئيه، فدراسة مسيرتهم ومواقفهم تجاه مسيرة الإمام الحسين عليه السلام هو تطبيق لدعوة القرآن الكريم بضرورة النظر للتاريخ وتعقّل ما فيه من أجل الاعتبار، قال تعالى: **{قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}**[3].

إنّ التدوين في سيرة المقتل الحسيني للاستفادة منها كنهضة للحياة وكمَعلَم للتضحية، وكحماسة مؤلمة تصيغ نفسية الإنسان الرسالي

---

[1] – التاريخ الإسلامي، دروس وعبر، ص22، السيد محمّد تقي المدرّسي.

[2] – سورة الممتحنة 4.

[3] – سورة آل عمران 137.

المتطلّع للاهتداء بنور الإمام الحسين عليه السلام والتمسّك بحبله المتين، بدأ يتنامى ويتصاعد بشكل لافت منذ نهايات القرن الرابع عشر الهجري ومع بدايات القرن الخامس عشر، ونذكر بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر، ولكننا نشير إلى أنّها ليست على وفاق تام، وليست على طريقة واحدة، لأنّ بعضها قصّر في الجانب المعنوي والغيبي لنهضة الإمام الحسين عليه السلام، وبعضها كان طرحه أكثر شمولاً وتكاملاً.

فمن هذه الكتب الرائدة:

1- كتاب (**نهضة الحسين**) للسيد هبة الدين الحسيني الشهرستاني. (توفي سنة 1386 هجرية).

2- كتاب (**الشهيد الخالد**)، الشيخ نعمة الله صالحي نجف آبادي، صدر لأول مرة في سنة 1951 ميلادية، والكتاب التالي هو ردّ علمي على أطروحته التي خلت من الجوانب العقدية والغيبية.

3- كتاب: (**النهضة الحسينية وعلم الإمام**)، الشيخ لطف الله الصافي الكلبيكاني، وهو رد على كتاب الشهيد الخالد.

4- كتاب (**عاشوراء ملحمة البطولة والفداء**)، (تم تأليفه في حدود 1398هـ، 1976م)، الإمام الحسين عليه السلام قدوة وأسوة، السيد محمد تقي المدرسي، وله عدة كتب في أبطال كربلاء، كالعباس وزينب وعلي الأكبر، وأنجال الحسن في كربلاء، وله كتاب التاريخ الإسلامي دورس وعبر (1414هـ)، وهو قراءة تحليلة عميقة لأحداث ما بعد كربلاء، وكتاب (عاشوراء امتداد حركة الأنبياء)، وكتاب (الإمام الحسين قدوة الصدّقين)، (معاصر، وُلد سنة 1945 ميلادية).

5- كتاب (**الشهيد والثورة**)، السيد هادي المدرسي، وله كتب عديدة أخرى في نفس المجال، منها كتاب عاشوراء، الإمام الحسين النهضة الشاملة، والإمام الحسين سيرة مقتل، (معاصر، ولد سنة 1367 هـ، 1947م).

6- كتاب (**ثورة الحسين، ظروفها الاجتماعية وآثارها الإنسانية**)، الشيخ محمد مهدي شمس الدين (1936م - 2001م)، وله كتاب أنصار الإمام الحسين، دراسة عن شهداء ثورة الإمام الحسين، وكتاب الإمام الحسين عليه السلام في الوجداني الشعبي.

7- كتاب (**رؤى عن نهضة الإمام الحسين عليه السلام**)، السيد محمد الحسيني الشيرازي(1347هـ - 1422هـ)، وله أيضاً الاستفادة من عاشوراء، ومن حياة الإمام الحسين عليه السلام.

8- كتاب (**في رحاب الإمام الحسين عليه السلام**)، الشيخ محمد مهدي الآصفي (1358هـ - 1436هـ)، وهو سلسلة كتب تحليلية لنهضة عاشوراء.

9- كتاب (**الملحمة الحسينية**)، الشيخ مرتضى المطهري (1920م - 1980م).

10- كتاب (**الحسين وراث آدم**)، الدكتور علي شريعتي (1933م - 1977م)، وله كتاب حول الحر الرياحي.

11- كتاب (**الحسين بن علي، نحو معرفة أفضل**)، الشيخ محمد اليزدي، طُبع في حدود سنة 1983م باللغة الفارسية ثم عُرّب.

12- كتاب (**أهل البيت تنوّع أدوار ووحدة هدف**)، السيد محمد باقر الصدر (1353هـ - 1980هـ).

13- كتاب (**أضواء على ثورة الإمام الحسين** عليه السلام)، السيد محمد الصدر (1362 هـ - 1419هـ)، وله كتاب شذرات من تاريخ فلسفة الإمام الحسين عليه السلام.

14- كتاب (**حياة الإمام الحسين بن علي** عليه السلام)،[3] جزاء، الشيخ باقر شريف القرشي (1344هـ - 1433هـ).

15- كتاب (**الثورة الحسينية**)، السيد عبد الحسين دستغيب، 1332 (هـ - 1402هـ).

ومن بعد هذه الكتب الريادية وأمثالها، بدأت هذه المرحلة في النمو بشكل لافت، ولا يمكن إحصاء ما كُتب لكثرته، ومنها موسوعات مثل: (مع الركب الحسيني من المدينة إلى المدينة) لمجموعة من المؤلفين، في ستة مجلدات، وموسوعة (الثورة الحسينية) لمحمد السماوي في تسعة مجلدات، و(موسوعة الإمام الحسين) للريشهري، في تسعة مجلدات، و(سيرة الإمام الحسين في الكتاب والسنة والتاريخ) للسيد العاملي في 23 مجلداً.

في الختام

إن غاية ما نتوخّاه من عرضنا لتاريخ تدوين المقاتل الحسينية من جهة منهجية، وتبيان العوامل العديدة المؤثّرة في سيرورتها، منهجاً وظروفاً، أن نستشعر مدى الحاجة لجميع التراث المدوّن، لا باعتباره نصّاً شرعياً بالضرورة، ولا باعتباره نصّاً تاريخياً صحيحاً بالمطلق، بل باعتباره تراثاً دينياً أَعمَل العلماء فيه جهدهم وبذلوا فيه غاية ما يرونه مناسباً وممكناً.

وعليه، فيمكن التعامل معها من هذه الناحية، التي تحتمل الوقوع أو تزوّدنا بوقائع مصاغة بأدب مختلف، أو تفتح لنا أبواباً لجمع القرائن التي يمكنها أن تعضد نصّاً ضعيفاً أو تبيّن معنى غائباً أو غير ذلك من فنون البحث القرائني.

أسأ الله العلي القدير أن يوفقنا للسداد، ويخلص أعمالنا في سبيله.

المصادر

1- **إكسير العبادات في أسرار الشهادات**، الفاضل الدربندي، تحقيق الشيخ محمد جمعة والأستاذ عباس الملا عطية.

2- **التاريخ الإسلامي، دروس وعبر**، السيد محمد تقي المدرسي.

3- **الفهرست**، الشيخ الطوسي.

4- **اللؤلؤ والمرجان في أدب أهل المنبر**، الشيخ حسين النوري الطبرسي.

5- **المباحث الحسينية**، السيد جعفر على الهدى البروجردي.

6- **الملا آقا الدربندي وتدوين المقتل**، رسول جعفريان.

7- **الملحمة الحسينية**، الشيخ مرتضى مطهّري.

8- **أنوار البدرين في تاريخ علماء القطيف والاحساء والبحرين**، الشيخ علي البلادي البحراني.

9- **بحار الأنوار**، العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي.

10- **تذكرة الشهداء**، الشيخ حبيب الله الكاشاني.

11- **تظلّم الزهراء من إهراق دماء آل العباء**، المولى نبي بن رضي القزويني.

12- **جامع السعادات**، محمد مهدي النراقي.

13- **دراسة نقدية لكتب المقاتل عند الشيعة**، الشيخ علي الدوّاني، ترجمة الشيخ محمد الحلفي، موقع مؤسسة وارث الأنبياء التابعة للعتبة الحسينية، على شبكة الانترنت.

14- **عيون أخبار الرضا**، الشيخ الصدوق.

15- **قصص العلماء**، الميرزا محمد بن سلمان التنكابني.

16- **كربلاء فوق الشبهات**، السيد جعفر مرتضى العاملي.

17- **مخزن البكاء**، محمد صالح البرغاني.

18- **مع الركب الحسيني، من المدينة إلى المدينة**، مجموعة علماء.

19- **معجم البلدان**، ياقوت الحموي.

20- **موسوعة أحاديث أهل البيت** عليهم السلام، الشيخ هادي النجفي.

21- **موسوعة المقاتل الحسينية**، مؤسسة وارث الأنبياء للدراسات التخصصية.

22- **موسوعة مقتل الإمام الحسين** عليه السلام، الشيخ محمد عيسى المكباس.

23- **نهضة عاشوراء (2)**، دراسة حول المقاتل والمصنفات العاشورائية، محسن زنجبر

24- **واقعة كربلاء في الوجداني الشعبي**، الشيخ محمد مهدي شمس الدين.

الفهرس

مقدّمة 5

أبعاد القراءة المنهجية لكتب المقاتل 11

بداية التدوين 16

مدى الوثوق بالمقاتل الأولى 21

نظرية الثقة بما دون القرن السابع 26

نقد النظرية 28

النقطة الأولى: المدّة الزمنية البعيدة. 28

النقطة الثانية: النظر إلى دواعي التحريف 32

النقطة الثالثة: متطلبات الواقع الاجتماعي 36

كتابة المقتل الحسيني تلفيقاً 38

ثورة الكتب الشيعية 40

دخول السمة الأدبية في صياغة المقاتل 42

تصدّي الفقهاء لكتابة المقتل 50

الملاحظات النقدية على المقاتل المتأخّرة. 61

هل يرى البعض جواز الكذب في نقل المقتل؟ 64

اتهام علماء البحرين القدامى بتجويز الكذب. 66

مسألة التفريق بين الحديث الشريف والرواية التأريخية. 70

اختلاف المباني والغايات. 74

أصناف المقاتل المتأخّرة 76

الدربندي رائد الرؤية العقائدية في المقتل 78

تأثير الدربندي في طريقة النظر لواقعة الطف 83

العقيدة الخالصة والتأثير الكلامي 86

استمرار المقاتل الموثّقة 93

هل وصلت المعلومة الكربلائية للنهاية؟ 98

التحقيق وإعادة التحقيق. 104

مسألة التحليل العقلي. 107

القراءة الحضارية في أحداث عاشوراء.................. 111

في الختام... 121

المصادر 123

التواصل مع المؤلّف

الموقع على شبكة الانترنت

www.mosawy.com

البريد الالكتروني

smamood@gmail.com